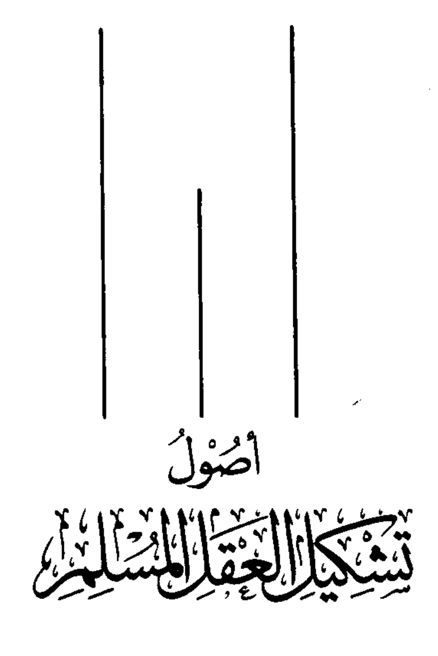
أصول تشكيل العقل المسلم

الدكتور عماد الدين خليل




أُصُوْل
تشكيل العقل المسلم



طبعة دار ابن كثير الأولى

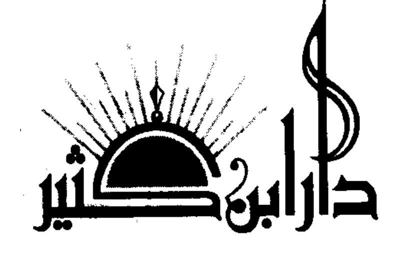
1426 هـ ـ 2005 م



للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :
الموضوع : دراسات إسلامية
العنوان : أصول تشكيل العقل المسلم
التأليف : الدكتور عماد الدين خليل
نوع الورق : أبيض
ألوان الطباعة : لون واحد
عدد الصفحات : 128
القياس : 17×24
نوع التجليد : فني سلوفان
الوزن : 0.6 كغ

التنفيذ الطباعي : دار القماطي للطباعة
التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502
بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

أصول تشكيل العقل المسلم

تأليف
الدكتور عماد الدين خليل



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

ما الذي أصاب «العقل المسلم» فصده عن المضي في الدرب إلى غايته؟ كيف ضربه العقم، بعد ذلك التوهج والإبداع اللذين أشعلت فتيلهما كلمات الله وتعاليم رسوله ﷺ؟

ماهو طريق الخلاص؟ وكيف يستعيد هذا العقل (المأزوم) ثقته بنفسه فيحقق حضوره التاريخي بعد غياب القرون الطوال؟ ما الذي أراد الإسلام أن يقوله وهو يعيد تشكيل العقل العربي، ويدفع به إلى العالم طاقة حركية فذة، وقدرة متميزة على الابتكار والعطاء؟

وهل يتسنى للإيمان أن يقف في المعركة وحيداً أعزل؟

ماهي النقلات الكبيرة التي حققها هذا الدين فشكل بها العقل الجديد؟

وما هي القدرات التي منحها الإيمان للإنسان المسلم فمكنه من ملاحقة هذه النقلات والتحقق بها؟

وما هو حجم الدور الذي أداه هذا العقل المؤمن على مستوى الأفكار والحضارات؟

بأية صيغة صمم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية؟ وما هي ملامح وسمات المعطيات التي تمخضت عنه؟

كيف يعثر المسلمون الضائعون اليوم على مفاتيح الخلاص.. وكيف يقوم المجتمع (التكنولوجي) الإسلامي المرتجى؟ وكيف تكون الاستجابة التي ستبعث العملاق؟

أسئلة كثيرة تدور في عقولَ المسلمين صباح مساء... يسعى هذا البحث الموجز إلى الإجابة عنها قدر المستطاع.

وأرجو ألا يخطر على بال القارئ أبداً أن يكون هذا الكتاب ثمرة «لرد الفعل» إزاء إلحاح بعض الإسلاميين على الدور الذي يمكن أن تؤديه التربية الروحية والأخلاقية في مجابهة المشكلة.. كما أرجو ألا يخطر على باله، كذلك، أن يكون الكتاب محسوباً على خط (العقلانية) التي تضع (الإيمان) في المرتبة الثانية أو الثالثة.

إن هذه النظرة التجزيئية مرفوضة أساساً.. وإن التاكيد على ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم لا يعني أبداً التقليل من شان العوامل الأخرى، لاسيما وأن التجربة الإسلامية تتعامل مع الإنسان وحدة متوحدة، ونسيجاً متشابك الخيوط، وتتأبى على التفكيك والتمزيق والانتقاء.

ولكن.. لما كان العقل المسلم قد أصيب بكسور خطيرة في العصر الراهن، ولما كان الإسلام نفسه قد أولى العقل تلك الأهمية القصوى التي تكاد تكون بداهة من البداهات.. فإن النتيجة الطبيعية، غير المفتعلة، أن يكون (التأكيد) على إعادة التشكيل العقلي في إطار إسلامي، ضرورة ملحة وأمراً محتوماً.

إن المسلم هو (نسيج وحده) عقلاً وروحاً وجسداً ووجداناً.. ولكن منطق الأولويات قد يقضي بالتأكيد على هذا الجانب حيناً، وعلى ذلك الجانب حيناً آخر.. ولن يقول أحد بأن الدعوة في كلتا الحالتين تتمخض عن ردود الأفعال.. إنما هي الرؤية الواقعية للمشكلة، والسعي الحكيم لإضاءتها، وطرح الحلول المناسبة لها..

ويبقى الإنسان المسلم (نسيج وحده) كما أراد له دينه أن يكون.



الفصل الأول

التحولات الكبيرة



١

لم يكن تطوراً اعتيادياً بالحسابات التقليدية.. لقد كان بمثابة قفزات في منظوري الزمان والمكان.. أما من الداخل، من تشكل العقل المؤمن الجديد فقد كان بمثابة رجات كهربائية متلاحقة أسقطت عنه الرين، ولاحقت زوايا العتمة في طياته، ودفعت به إلى العالم: فاعلاً، متألقاً، متوهجاً، قديراً على الفعل والتحقق والإبداع..

لقد تم ـ بإعجاز مذهل ـ تجاوز صيغ المعادلات القديمة.. وكسرت الأرقام القياسية، وبعث عقل جديد عرف كيف يعيد صياغة العالم..

لقد أريد للعقل المسلم أن يظل متوهجاً منذ لحظة الوحي الأولى حتى اللحظة التي يطفئه فيها برد الموت، ويطمس عليه ظلامه العميق.

إن العقل البشري قد أعيد تشكيله.. وطرحت تجاهه آفاق شاسعة، ممتدة الجوانب، بعيدة الحدود، دعي للتحرك إليها والاستجابة لنداءاتها.. على المستويات كافة: التصورية، الاعتقادية، المعرفية، المنهجية.. والحضارية.. وكان جديراً حقاً بتلبية النداء، قديراً على التحقق بمعطياته..

إنها الأمانة...

ولكن.. وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه التحولات الخطيرة في مستوياتها الأربعة، نجد أنفسنا إزاء هذا السؤال الملح:

إن «القضية» أو «الدين الجديد» في التحليل النهائي، تمثل تعبيراً عن التقابل الشامل بين علم الله الذي لاتحده حدود وبين قدرة الدماغ البشري، والكينونة الآدمية عموماً، على إدراك هذا العلم وهضمه وتمثله وتحويله إلى فعل متحقق، وسلوك منظور، وصيرورة تاريخية مبدعة... وإذا استخدمنا التعبير القرآني نفسه قلنا:

إنه عرض (للأمانة) الكبرى التي لم تطق حملها السموات والأرض، وهاهي الآن تعرض على الإنسان.

فهل هو قدير حقاً على الالتزام بالمهمة الصعبة؟.

وهل ثمة مايمكن أن يخشى من حدوث نوع من الانفصال، من التباعد أو الثنائية بين معطيات الدين المتقدمة هذه، وبين القدرة البشرية، العقلية والروحية، على التحمل والتمثل والالتحام؟

لن نستعير مصطلحاً أجنبياً إن قلنا: إن الدعوة الجديدة كانت (تقدمية) جداً بالنسبة للعقل البشري... وإنها طرحت من المعطيات مالم يكن بمقدور هذا العقل، حتى وهو يدعى صعوده الذروة في القرن العشرين هذا، على إدراك بعض جوانبها، فضلاً عن هضمها وتمثلها وتحويلها إلى فعل وتحقق وصيرورة وسلوك وإبداع..

إننا هنا إزاء معادلة صعبة من الدرجة الرابعة ـ إذا صحت التعابير ـ.. علم غير محدود إزاء قدرات عقلية محدودة، لم تكن تملك الدربة الكافية والمران المطلوب لتقبل نفحات هذا العلم الممدود.

فكيف تمت الاستجابة؟

كيف قدر العقل المسلم على حمل الأمانة وتنفيذ المهمة وأداء الدور؟

كيف لم يحدث، في الأعم الأغلب، ماكان يمكن أن يحدث من انفصال وتباعد وسوء تفاهم بين المطالب الجديدة (المتقدمة) وبين الشد التاريخي، والتقاليد السائدة، والقدرات المحدودة؟

لقد حدث شيء من «سوء الفهم» هذا.. من عدم التقبل، والتفاعل، والالتحام.. مافي هذا شك.. وعلى الطرف الآخر.. كان أحد أهم أسباب تشبث الكفار بمواقعهم يكمن هاهنا: عدم قدرة عقولهم على

استيعاب المضامين والمعطيات والآفاق التي جاء بها، وطرحها، وعرضها عليهم الدين الجديد. . إلا أن الخط الأكثر عمقاً وامتداداً، أن المنتمين إلى الدين الجديد، عبر سلسلة طويلة من الأجيال، كانت عند حسن الظن. . وحققت القفزة المرجوة في اتجاهاتها جميعاً.




المسارعة... والسبق!!

فكيف تمت المعجزة؟ وما هي (الظروف) التي أعانتها على التحقق: استيعاب مذهل للعقل البشري، لتغيرات جذرية، مكنته من إعادة التشكل والعمل وفق صيغ جديدة لم يألفها قبل إنسان؟!

إننا نستطيع أن نحظى ببعض الإضاءات المركزة التي تعين على الجواب.. إن الإسلام ـ من جهة ـ منح المنتمين إليه قدرات «إضافية» لتجاوز حيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود.. إنه ـ بالسلم ذي الدرجات العريضة الذي رسمه لهم، والذي يبدأ بالإسلام وينتهي بالإحسان، مروراً بالإيمان والتقوى ـ شحذ طاقاتهم، وشد همتهم، ونفخ في روحهم، ودفعهم دفعاً إلى التجاوز والاختراق من أجل الوصول إلى القمة التي يطمح إليها كل منتم لهذا الدين: الإحسان.. هنالك حيث التكشف الكامل، والإبداع التام، والتقابل الذي لا يحجبه شيء بين الله والإنسان.. (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)..

إن الناس في الأعم الأغلب، يمشون إلى أهدافهم، أو يهرولون إليها، ولكننا هنا نجد أناساً يركضون.. لقد بعث الإسلام أجيالاً من العدائين الذين عرفوا كيف يحطمون الأرقام القياسية وهم يجتازون الموانع والمتاريس، ويقطعون المسافات الطوال... إن القرآن الكريم نفسه يصفهم بأنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وأنهم ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

فها نحن بصدد مؤشرين للسرعة والإنجاز الذي يختزل ويحقق أهدافه القياسية المرتجاة: المسارعة، والسبق.

العودة إلى الأصول...

هكذا تم قطع الأميال الآلاف وصولاً إلى خط النهاية والفوز العظيم.. وخط النهاية هاهنا هو معانقة المصير المتفرد، والتحقق بالإحسان.

إن الغربيين يتفوقون اليوم علينا بأشياء وممارسات كثيرة.. ولاريب أن من أبرز هذه الأشياء والممارسات هو قدرتهم على الركض إلى الأهداف، وتجاوز المشي أو الهرولة إليها.. على اختزال حيثيات الزمان والمكان.. على الحفاظ على شدهم وتوترهم المعطاء حتى خط النهاية.. على المسارعة في الإنجاز والسبق إلى كل ماهو أكبر وأكثر غناء.. ولن يكون بمقدورنا أن نلاحقهم ونصل إلى مواقعهم، بله أن نسبقهم، مالم نتحقق بالشرط نفسه.. إننا هنا لا نستعير تقليداً حضارياً من الغرباء، ولكننا نرتد إلى أصولنا، نرجع إلى كتابنا وسنتنا وتقاليد أجدادنا الرواد لكي نعرف كيف يكون السبق الحضاري.. والتحقق.. والإبداع!!.

إن الانتماء إلى الإسلام يعني ـ في نهاية التحليل ـ الموافقة المبدئية على الدخول في عمل مبرمج مرسوم.. والإيمان بالله يعني التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هذا العمل.. أما التقوى فهي تلك الطاقة الفذة التي تشعل مصباح الضمير فيظل متألقاً متوهجاً حتى يغيب الإنسان في التراب مادام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية أن الله يرقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك... ويجيء الإحسان لكي يضع الإنسان المسلم المؤمن المتقي.. في القمة.. في المصاف الأعلى حيث الإحسان.. الإبداع الكامل في كل

ما يقدمه الإنسان.. إنه هاهنا يقف أمام الله سبحانه... وإن نداء كريماً من نبيه ﷺ ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة، إن الله يحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه.

ومن خلال هذا المدرج المرسوم بعناية.. عبر هذا السلم ذي الدرجات العريضة يصعد المسلم ركضاً إلى القمة، ويتمكن، بالعمل الجماعي المبرمج والاقتناع بحيثياته، وبيقظة الضمير المتوهج، والرغبة العميقة في الإتقان والإبداع، من الوصول إلى الهدف المنشود: التحقق بالقيم الكبرى التي جاء بها هذا الدين والوفاق مع معطياتها.. رغم صعوبة هذا التحقق وغلاء ثمنه الباهظ، ورغم البعد الشاسع الذي كان يفصل ولا يزال، بين آفاق هذا الدين وبين المنتمين إليه.

من جهة أخرى، فإن الحركة الإسلامية في العالم، هي في حقيقة الأمر حركة صوب «الوفاق» مع نواميس الوجود، وسنن الطبيعة، وقوانين الكون.. لقد انشقت أجيال بني آدم، بهذه الدرجة أو تلك، ولهذا السبب أو ذاك، عن الناموس.. وجاء الإسلام ـ بمفهومه الشامل ـ لكي يعيدها إلى الانتماء والوفاق.

من نتائج هذه العودة...

ولنا أن نتصور حجم النتائج المتمخضة عن هذه العودة.. إن الإنسان بمجرد انتمائه الجاد إلى هذا الدين، يضع نفسه وقدراته في سياق واحد، وتوجه واحد، ومجرى واحد مع خلائق الله كافة، وسننه المذخورة في الطبيعة، ونواميسه العاملة في الكون.. إنه سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتت الطاقة وتضعف فاعليتها.. إلى الانسجام والتناغم مع السنن والنواميس، سوف يضيف إليها ويأخذ منها.. ومن هذا الشد المتبادل.. من هذا الوفاق.. من هذا الأخذ والعطاء على الدرب الواحد، بالقانون الواحد، صوب الهدف الواحد.. يتحول الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذة في ميدان الفعل والإنجاز.. قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع.. شعلة متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق الذات فيضيئها ويدفعها، وإلى آفاق العالم فتتبين ملامح الطريق. ليس ثمة تفتت في الطاقة، ولا غموض في الطريق، ولا ضياع للأهداف.

يومها ينطلق المسلم، فرداً وجماعة، بقوة اختزال مدهشة لمواضعات الزمان والمكان والتراب، وصولاً إلى أهدافه المِرتجاة.

إن الوفاق الحركي بين الإنسان والكون لهو أحد مفتاحين كبيرين يفسران لنا كيف يتحقق صعود الإنسان، لا أقول إلى القمر، ولكن إلى أبعد منه: الآفاق البعيدة التي جاء هذا الدين لكي يقود الإنسان إليها.. فأما المفتاح الآخر فقد عرفناه قبل قليل: إنه ذلك السلم الذي تشرف درجته العليا على

أرفع مافي العالم من قيم تشرف الإنسان وتسعده وتزكيه.. والتي تجعله يقف تجاه الله سبحانه: سعيداً، متوحداً، قديراً على الفعل والعطاء والإبداع..

ومهما يكن من أمر فإن «المسافة» التي تفصل الإنسان عن «الأهداف» التي تنزل بها الإسلام، تظل متطاولة، متباعدة، صعبة، نائية، ولن يكون بمقدور أحد من الأناس أن يجتازها بسهولة.. إنه لابد من التحقق بالشروط التي دونها لن يكون وصول أبداً إلى الأهداف.

وإن القرآن الكريم «ليحدثنا» في اثنتين من آياته البينات عن السبب في صد الكثيرين عن نداءات هذا الدين.. وعن أن الصيرورة الزمنية، بما تحقق من تراكم في الخبرة، ومزيد تألق في العقل، كفيلة بالإعانة على تجاوز المعضلة، والاقتراب أكثر من الهدف المرتجى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾!! [فصلت: ٥٣].

ومعنى هذا.. أن خبرة البشرية، التي تزداد تضخماً، يوماً بعد يوم، في الكم والنوع، والتي قد تبدو في كثير من الأحيان، منساقة وراء نداء الشيطان.. مغرورة.. منتفخة.. مارقة.. متبجحة.. هي نفسها التي ستقرب أجيال بني آدم من الحق.. وهي نفسها التي ستريهم آيات الله في الأنفس والآفاق.. وهي نفسها التي ستعينهم على بلوغ الأهداف.

إن مرور الزمن بهذا المعنى، يدفع المسلمين اليوم ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ إلى مزيد من التفاؤل.

وإن تراكم الخبرة، ونمو معطيات الكشف والابتكار، ستقرب البشرية إلى الله.

إن الزمن في خدمة هذا الدين.. أو هكذا يجب أن يكون.

والآن.. ماهي أبعاد «التحولات» أو «النقلات» التي نفذها الإسلام إزاء جيل الرواد من صحابة رسول الله ﷺ، فأعاد بها تشكيل العقل البشري ودفعه إلى العطاء والإبداع؟

[١] النقلة التصورية الاعتقادية...

نبدأ بأولى هذه التحولات، وأكثرها أهمية، لأنها بمثابة القاعدة التي انبنت عليها سائر التحولات: النقلة التصورية ـ الاعتقادية.

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، وكرمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولاتراه العيون. . كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب.

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النقطة فقال: إنها خروج بالناس ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

التحول الكامل من الأسود إلى الأبيض، والانتقال من النقيض إلى النقيض. . وقال أيضاً بأن الإسلام جاء لكي يحرر بني آدم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما وراءه فليس سوى التيه، والاعوجاج، والضياع، والهوى، والضلال. . ولن يقدر عقل مهما أوتي من فطنة على أن يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبط في التيه ويكبل بالأغلال.

والفاتحون الذين أسقطوا الدول والأمبراطوريات، وغيروا خرائط العالم، قالوها صراحة: جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

إن العقيدة الجديدة جاءت لكي تنقل الإنسان إلى السعة والعدل والتوحيد.. هنالك حيث يجد العقل نفسه، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم، قديراً على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول مالا يمكن قبوله باسم الدين، متحققاً بالتقابل الباهر بين الإنسان والله.. حيث يملك وحده حق التوجه، والتعبد، والمصير.

شيء من الجاهلية:

ولكي ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية في مجال العقيدة، فإن لنا أن نستحضر في أذهاننا شيئاً من ممارسات العقل العربي في الجاهلية، وطرائق إدراكه للعالم، وصيغ تعامله مع ما «تصوره» القوى التي تهيمن عليه، وتسيره.. ونقارن هذا بالمصاف الذي احتله العقل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد.

يقول ابن الكلبي في كتابه المعروف «الأصنام»:

(... كان الذي سلخ بالمكيين إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة.. ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ماكانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم من قبلهم)[1].

---

(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كتاب الأصنام ص٦. (تعليق أحمد زكي الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٢٤م).

وحدث أن أصيب عمرو بن لحي ـ الذي يلي أمر الكعبة ـ بمرض شديد (فقيل له: . . . إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ماهذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر!! ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة)[1].

ومن يومها والأصنام تزداد في أروقة مكة وأطرافها بمرور الوقت، والأوثان تتكاثر. . والخرافات التي جعلت من الحجارة آلهة تعبد ويتقرب بها إلى الله. . تنتشر وتمتد وتتشابك لكي ماتلبث أن تغطي حياة العربي كلها في عبادته وعمله. . في ليله ونهاره. . في صحوته ومنامه.

ويروح ابن الكلبي يحكي لنا عن الأصنام التي اتخذها العرب آلهة: سواع. . ود. . يغوث. . يعوق. . نسر. . مناة. . اللات. . العزى. . هبل. . أساف ونائلة. . ذو الخلصة. . ذو الكفين. . ذو الشرى. . الأقيصر. . نهم. . رائم. . سعيد. . الفلس. . سعد. . اليعبوب. . باجر. . عميانس. . وعشرات. . بل مئات أخرى من الأصنام والأوثان لم تكن منتشرة في الصحراء وحدها، بل على العكس، كانت المدن الأكثر تقدماً هي الساحات التي تعج بها وتزدحم. . وحول كل صنم أو وثن حشد من الخرافات والأوهام والأضاليل، تراكمت وتشابكت كما تتشابك خيوط العنكبوت في الأماكن المهجورة. . ولا يبخل علينا ابن الكلبي بهذه الترهات. .

(كان أساف يتعشق نائلة في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجاً، فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجر بها هناك، فمسخا، فأصبحوا، فوجدوهما مسخين، فأخرجوهما فوضعوهما في موضعهما، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب)[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه ص٨.
(٢) المصدر السابق نفسه ص٩.

وكانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها، يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة (على ساحل البحر الأحمر) فحلقوا رؤوسهم، وأقاموا عنده لايرون لحجهم تماماً إلا بذلك[١]... والأوس والخزرج قبيلتان ممن هداهما الله إلى الإسلام ـ فيما بعد ـ وأعز بهما دينه ونصر رسوله ﷺ.. فليس مايقول بعضهم من أن الدين القويم لاينبت في النفوس الملتوية والعقول الضالة، فإنه مادام الإسلام قد قام بين العرب فهم ـ بالضرورة ـ ليسوا جاهليين!!..

وكان هبل في جوف الكعبة، قدامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها «صريح» والآخر «ملصق» فإذا شكوا في مولود، أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقدح، فإن خرج «صريح» ألحقوه، وإن خرج «ملصق» دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على أي شيء كانت، فإذا اختصموا في أمر وأرادوا سفراً أو عملاً، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه[٢]. كأن ليس لهم عقول تهديهم إلى مايفعلون، ولا إرادة حرة تمكنهم من فعل مايختارون.. وكأن الشك في صحة أنساب أبنائهم كان هو القاعدة، واليقين هو الشذوذ، ولذا كانوا يلجؤون للأقداح علها تقطع شكهم باليقين.

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً!![٣]. وكان لقضاعة ولخم

(١) المصدر السابق نفسه ص١٤.
(٢) المصدر السابق نفسه ص٢٨.
(٣) المصدر السابق نفسه ص٣٣.

وجذام وأهل الشام صنم يقال له «الأقيصر» فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده؛ فكانوا كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قبضة من دقيق[١]. وكان مالك بن حارثة يبعث به أبوه بالبن إلى ود، ويقول: اسقه إلهك!! يقول مالك: فأشربه!! ثم رأيت خالد بن الوليد ـ بعد ـ كسره فجعله جذاذاً[٢]. وهو يذكرنا بتلك القبيلة من بني حنيفة التي كانت إذا جاعت أكلت إلٰهها المصنوع من التمر.

«واستمرت العرب في عبادة الأصنام ـ يقول ابن الكلبي ـ فمنهم من اتخذ بيعاً، ومنهم من اتخذ صنماً. . ومن لم يقدر ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها «الأنصاب». . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاثة أثافٍ لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتمرون إليها، وكان الذي يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها، ولصبابة بها»[٣].

من هذا المستنقع الآسن. . من هذه النقرة الضيقة التي يختنق فيها العقل والروح والوجدان. . من هذه الخرائب المهجورة التي يعشش فيها التخلف، والسخف، والسذاجة، جاء الإسلام لكي يخرج بالإنسان إلى آفاق التوحيد، ونضج التصور، ونقاء الاعتقاد. . فيحرر عقله وروحه ووجدانه، ويعيد تشكيلها من جديد.

---

(١) المصدر السابق نفسه ص٤٨.
(٢) المصدر السابق نفسه ص٥٥.
(٣) المصدر السابق نفسه ص٣٣.

لقد طرحت هذه العقيدة، أو بنيت بعبارة أدق، على حشد من القيم التصورية، كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركية والإيجابية والواقعية.. تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقاً عقيدياً، ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى في العالم، وضعية كانت أم دينية.. ولن تبلغه أبداً.. وكما أن هذا «النسق» المحكم يمثل تطابقاً باهراً مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقية الحرة.. فإنه يمثل في الوقت نفسه تطابقاً مذهلاً مع معطيات العقل المحضة، وتطلعاته وآفاقه.

إن التصور الإسلامي نسيج وحده.. وإن المغزل الإلهي الذي حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان.. هو الذي عرف كيف يعيد تشكيل العقل الجديد، ويدفعه في الوقت نفسه إلى الحركة التي لاسكون بعدها.

لقد منحه الأرضية.. وأعطاه الإشارة.. وسنجده ينطلق، بعدها، لكي يصنع المعجزات.




[٢] النقلة المعرفية...

النقلة (الإسلامية) الأخرى، أو التحول الآخر، تحول معرفي.. عمل في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود، بالحجم نفسه، والطموح نفسه، الذي جاء الإسلام لكي يمنحه الإنسان.

منذ الضربة الأولى في كتاب الله.. الكلمة الأولى.. نلتقي بحركة التحول المعرفي هذه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وعبر المسيرة الطويلة، مسيرة الاثنتين والعشرين سنة، حيث كانت آيات القرآن تتنزل بين الحين والحين، استمر «التأكيد» نفسه لتعميق الاتجاه، وتعزيزه والتمكين للنقلة، وتحويلها إلى واقع معيش.

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير، والتعقل والتفقة والتدبر.. إلى آخره.. منبثة في نسيج كتاب الله.. لم تخفت نبرتها أبداً هناك في العصر المكي أو هنا في العصر المدني.. لكأنها معجونة بالخيط الإلهي الذي نسج آياته البينات.

ليس عبثاً أن تكون كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ هي الكلمة الأولى في كتاب الله.. وليس عبثاً أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث.. وليس عبثاً ـ كذلك ـ أن ترد

كلمة «علم» ثلاث مرات، وأن يشار بالحرف إلى القلم: الأداة التي يتعلم بها الإنسان.

وبعدها، وعبر المدى الزمني لتنزل القرآن، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة: اقرأ، تفكر، اعقل، تدبر، تفقه، انظر، تبصر.. إلى آخره.. ويجد العقل المسلم ملزماً، بمنطق الإيمان نفسه، بأن يتحول، أن يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع التوجه (المعرفي) الذي أراده الدين الجديد:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤ ـ ٥٥].

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: ١٣].

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

وسوف نلتقي في الحديث عن (النقلة المنهجية) بحشود أخرى من الآيات القرآنية عن الأفعال المعرفية الأخرى: النظر، السمع، البصر، التعقل، التفكر، التفقه، . . العلم. . إلخ.

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة، والتشريع، والسلوك، والحقائق «العلمية» تمثل نسقاً من المعطيات المعرفية كانت كفيلة، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان، وأن تفجر ينابيعه وطاقاته، وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل مايحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء.

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامة لم تكن قد حظيت من «المعرفة» إلا بالقسط اليسير. . مع جيل من الناس لم يبعد ـ بعد ـ عن تقاليد الجاهلية، وقيمتها، وطفولتها الفكرية. . لكنه قدر، بقوة الإيمان المعجون بالدعوة الجديدة، على أن يعلمهم فعلاً. . وذلك بأن يعيد تشكيل عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة، مدركة للأبعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يتحرك الإنسان صوب آفاقها الرحبة. . وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوق المعرفي للمسلم، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل.

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضا بأوساط الأشياء.. وجاء عهد القلق والحركة.. بحثاً عن الكمال الذي يليق بمعطيات الدين الجديد.

لقد حرث الإسلام، في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، الأرض البكر، بعد أن انتزع حشائشها الضارة ودغلها، ومنحها الماء، وبذر فيها البذور الصالحة للإنبات.. ولن تكون النتيجة، بعدها، إلا حدائق ذات بهجة، وفاكهة، وأباً.. ولن يكون الحصاد إلا جنى حلواً وشهداً.

إن الإسلام لا يهتم بالتفاصيل.. ولكنه يسعى إلى تكوين «بيئة» عمل وإنجاز تتضمن الشروط والمواصفات كافة التي تمكنها من العطاء.. وهاهنا، في حقل التوجه المعرفي، تمكن الإسلام من خلق هذه البيئة.. حتى أنار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج في ليل بهيم.

إن النهار الذي أطلعته حضارة الإسلام الآتية.. ما كان له أن يطلع لولا الشعلة التي مست عقل كل مسلم ودفعته إلى التألق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد.

[٣] النقلة المنهجية...

أما النقلة الثالثة، فلم تكن لتقل عنهما خطراً بحال من الأحوال.. وهي ترتبط بشكل ما، بالنقلتين السابقتين، وتنبثق عنهما في الوقت نفسه.. إنها النقلة المنهجية.. ونحن نعرف اليوم، كم يؤدي «المنهج» دوراً خطيراً في حركة الإنسان الفكرية.. والحضارة عموماً.. ونعرف أنه دون «منهج» فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد، وقدم من عطاء.

والنقلة المنهجية التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها.. امتدت باتجاهات ثلاثة: السببية، القانون التاريخي، منهج البحث الحسي (التجريبي).

فلنقف قليلاً عند كل واحد من هذه الاتجاهات لنتلمس أبعاد المنحة الكبيرة التي قدمها الإسلام للعقل البشري، فمكنه من إعادة التشكل، وأعطاه من الأدوات ماعرف به كيف يحيلها إلى إبداع حضاري موصول.

(أ) السببية:

من خلال التمعن في نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود.. تربط، وهي تتأمل وتبحث وتعاين وتفكر، بين الأسباب والمسببات.. تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء في هذا الحقل أو ذاك، وفي هذه المساحة أو تلك.. لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربي مرحلة النظرة التبسيطية، المسطحة، المفككة التي تعاين الأشياء

والظواهر كما لو كانت متقطعة معزولة منفصلاً بعضها عن بعض.

وهي خلال ذلك لاتملك القدرة على الجمع، والمقارنة، والقياس، والتقاط عناصر الشبه، وعزل عناصر الاختلاف.. لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الأخرى.

ولقد تمكن القرآن الكريم بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التي أرادها لها: عقلية تركيبية، تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود الظواهر بحثاً عن العلائق والارتباطات، ووصولاً إلى الحقيقة المرتجاة.

بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها، هي: التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه.. إذ دون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوماً عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق.

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التي نادت المسلمين مراراً للتحقق بهذه الرؤية التركيبية، والربط بين الأسباب، فهي كثيرة جداً، خاصة في العصر المكي حيث كانت ضرورات التربية تقتضي التأكيد على تكوين عقليات كهذه.. تقارن وتركب وتربط بين الأسباب.

ومن خلال هذا التأكيد، ذي الارتباط العميق بالموقف الإيماني عموماً، أصبح العقل المسلم يرى في رؤية كهذه ضرورة من الضرورات، بل بداهة

من البداهات.. وراح يمارسها صباح مساء، ويتمرن على الأخذ بها، والعمل وفق شروطها، حتى غدت بالنسبة له تقليداً عقلياً سائداً.. وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود ـ في مقابل هذا ـ سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب.

لقد انتهى عهد التفكك، والعزلة، والتبسيط.

إن الكون الذي هو تعبير عن إبداع الخالق، تحكمه قوانين واحدة، وأسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادة واحدة..

ولن يتحقق فهمه أبداً مالم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية، تعرف كيف تجمع وتلم، وتقارن وتختزل وتركب.. وصولاً إلى الحقائق التي تبغيها.

إن الكشف عن (السببية) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري، وإضافة قيمة مكنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع.

(ب) القانونية التاريخية:

ولأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة: إن التاريخ البشري لايتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء.. سواء بسواء.. وإن الوقائع التاريخية لاتتخلق بالصدفة، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك.

القانون يحكم التاريخ.. تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم.. إن كتاب الله يقدم أصول «منهج» متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض

والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية، كما فعل ابن خلدون ـ فيما بعد ـ على سبيل المثال، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلاّ بعد انقضاء عدة قرون؛ وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء، وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود «سنن» و«نواميس» تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها، وانتقالها من حال إلى حال. ولقد وقع الكثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من مارس هذا (المنهج) وأنه لاتوجد قبله أية محاولة في هذا السبيل.

إن «المنهج» الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد، أكثر من مرة، على أن «التاريخ» لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميداناً للدراسة والاختبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها، وليس الأسلوب الفني في العرض سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ.

إن القرآن يطرح على العقل البشري ـ إذاً ـ ولأول مرة، مسألة «السنن» و«النواميس» التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطىء، وعبر مسالكها «المقننة» التي ليس إلى الخروج عليها سبيل، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري، ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية، أو الوضع الاقتصادي، لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان، والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً، ومن ثم فإن حكمها على هذه «الحركة» يجيء منطقياً تماماً، لأنه أشبه «بالجزاء» الذي هو من جنس

«العمل» ومن خامه الأصيل، وعادلاً تماماً لأنه يكافئ الإنسان، فرداً وجماعة، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفاً، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها.

وعلى العكس فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن، سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائياً، وبالتالي يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل.. ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها، إنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم.. ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ، وأنها لا تأسر نفسها في تفاصيل وجزئيات موقوتة، بل تمتد وتمتد، مرنة منفتحة شاملة، لكي تضم أكبر قدر من الوقائع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات، وتبقى دائماً الحصيلة النهائية، والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ.

إنها تريد أن تقول لنا ـ باختصار وتركيز بالغين ـ: إن حركة أية جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية، وإنها، بما قد ركب فيها من قوى العقل والروح والإرادة ـ خلافاً لما هو سائد في العوالم غير البشرية ـ مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك، حيث ينبغي العبث واللاجدوى، وحيث تتحرك الحرية من شكلها المهوش المتميع الغامض، إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان أمام الله بمسؤوليته تجاه العالم لكي يحقق إعماره ورقيه وتقدمه، وفق مايجيء به أنبياء الله، حيناً بعد حين، من تعاليم وخطط تأخذ بيد الجماعة البشرية في هذا الطريق.. وحيثما انتفت هذه العلاقة الإيجابية بين الإنسان والله والعالم، وأسيء استخدام «الحرية» وضاعت المسؤولية،

وانعدم التخطيط المدرك الواعي، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن قوى العقل والروح والإرادة، جاء الجزاء الموازي لجنس العمل، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥].

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣].

السنن والقرآن:

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطا التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار، وأن «تحسن» التعامل مع قوى الكون والطبيعة، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ

مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦].

(ج) منهج البحث الحسي - التجريبي :

ولكن لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية، يعدل الكسب المعرفي القيم أحرزه العقل المسلم خصوصاً، والعقل البشري عموماً، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي ـ التجريبي الذي كشف النقاب عنه، ونظمه، وأكده، كتاب الله.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق «النظر الحسي» إلى ماحولهم، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب. . . قال له:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وناداه أن يمعن النظر إلى ماحوله.. إلى طعامه:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣١].

إلى خلقه:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]..

إلى الملكوت:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]..

إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢]..

إلى خلائق الله:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]..

إلى آياته المنبثة في كل مكان:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [المائدة: ٧٥]..

إلى النواميس الاجتماعية:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١].

إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

إلى الأثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار:

﴿انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

ودعاه أن يحرك «سمعه» باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وانتقل القرآن خطوة أخرى، وسألهم أن يحركوا «بصائرهم» تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية. . . لا حصر لها، ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات، وتمحيصها، وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى «الحق» الذي تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة:

﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

إن العقل والحواس جميعاً مسؤولة، لاتنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار. . والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها، باستغلاله قدراته الفذة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على

السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوّئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين، وخليفة في الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد.. منزلة البهائم والأنعام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣].

وحشد آخر من الآيات بلغ مايقرب الخمسين، حث على تحريك «العقل» المفتاح الذي منحه الله بني آدم، والذي يتوجب اعتماده لكي تمضي الكشوف والمعطيات التجريبية إلى غايتها:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

وآيات أخرى دعت الإنسان إلى «التفكير» العميق، المتبصر، المسؤول، بكل مايحيط به من ظواهر وأشياء، وطاقات وموجودات:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وما يقال عن «التفكر» يمكن أن يقال عن «التفقه» وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود:

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد «البرهان» و«الحجة» و«الجدال الحسن» للوصول إلى النتائج الصحيحة، القائمة على الاستقراء والمقارنة، والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الحسية الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه المعطيات:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

هكذا يبدو العلم بمفهومه الواضح الشامل، فاعلية في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين، أو المنهج الإلهي طريقة لها في الحياة.. ولابد أن نضيف هنا حقيقة أخرى غاية في الأهمية، تلك هي أن كلمة «العلم» وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على «الدين» نفسه الذي علمه الله أنبياءه عليهم السلام.. على النواميس التي يسير الله بها ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله في «أم الكتاب»، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية؛ ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن؛ إن كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة كما أراد لها أن تكون، لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال، أو حتى الإشارة إليه، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمئة والخمسين.

ومن ثم فلا يتصوّرنّ أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب.. إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها

إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات.. إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسالة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها... بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي.. ولم يفصل الإسلام ـ يوماً ـ بين هذا وذاك.





الفصل الثاني

أبعاد التحقق التاريخي



الفصل الثاني
أبعاد التحقق التاريخي

والنتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً.. تشكل عقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع.

وهكذا، فإن النقلة أو التحول الحضاري الكبير الذي نفذه المسلمون، وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء، إنما جاء ثمرة «للعقلية» التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي دورها الشامل في تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية.

ولم تكن هذه النقلة الحضارية، بحال، أقل خطورة من النقلات الثلاث التي مهدت لها وشقت أمامها الطريق.. فلقد كانت على درجة من الثقل والامتداد ماجعلها أمراً تاريخياً مشهوداً، قدم إسهامه المتنوع الغزير، ليس فقط على مستوى الجغرافية الإسلامية، وإنما جغرافية العالم الحضاري كلها.

إن الأفكار، أو النشاط العقلي، بعبارة أخرى، هو الذي يسهم جنباً إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة، في صناعة الحضارات وليس العكس مما تقول به بعض النظريات التي أكدت رجعيتها آخر معطيات العلم الحديث... صحيح أن الصيغة الحضارية تؤثر في العملية العقلية، وتؤدي دوراً أكيداً في توجهاتها.. ولكن مفتاح الحركة، والكلمة الفاعلة فيها هي للعقل أولاً وأخيراً.

وهكذا فإن قيام الدين الجديد بتشكيل عقل إسلامي فعال، بالمواصفات التي تحدثنا عنها، ومن خلال تحولات جذرية على المستويات كافة،

العقيدية والمعرفية والمنهجية.. كان بمثابة إرهاص لمولد طاقة حضارية فذة، كان لابد أن «تلد» عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين في رحم تهيأت له شروط الميلاد الميسور كافة.

واليوم فإنه ليس بمقدور قوة في الأرض أن تبعث المسلمين من جديد للفعل الحضاري ما لم تتهيأ الشروط والمواصفات نفسها.. مالم تتحقق بالتحولات الحاسمة ذاتها: عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً.

لقد شهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة.. وكان الأمر في التحليل النهائي بمثابة تحقق في الزمان والمكان، للرؤية التي تنزل بها هذا الدين، فأعاد من خلالها صياغة الروح والقلب والعقل والضمير.. ولولاها.. لما كان بمقدور العقل العربي، بمواصفاته التقليدية القديمة أن يفعل عشر معشار هذا الذي فعله بعد إعادة تشكله بالمؤثرات والتحولات التي صنعها الإسلام.

ولقد امتد «الفعل الحضاري الإسلامي» لكي يغطي اتجاهات ثلاثة، انضفرت في نهاية الأمر لكي تعزز الوجود الحضاري الإسلامي وتغنيه من جهة، ولكي ترفد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى.

فأما أولى هذه الاتجاهات فتتمثل باحترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضاري البشري الذي سبقها وعاصرها.. ولم يكن العقل الإسلامي الجديد بالذي يتشنج في دائرة الذات، وينقفل على حدود الأنا.. بل لقد علمته العقيدة التي أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المرن على كل حضارة، أو إنجاز مادام أنه قد يتضمن جانباً من الحكمة التي يتحرق العقل بحثاً عنها.. ولقد أصبحت هذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية، وعادات سائدة، امتدت لكي تغطي مسيرته الطويلة.

الانتقاء الحضاري...

لم يكن هذا «العقل» يرفض معطيات «غيره» ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية.. لقد كان يملك في تركيبه الخاص، ومن خلال منظوره العقيدي، المقاييس الدقيقة والموازين العادلة التي يمرر من خلالها تلك المعطيات، فيعرف جيداً ما يأخذ، ويعرف جيداً ما يدع.

إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية، مستفيداً إلى أقصى حد من خبرات الآخرين، ولكن لم يحدث أبداً أن أقحم في مجرى التحقق الكبير هذا عناصر وأجساماً غريبة لاتملك القدرة على الانسجام مع نسيج الحضارة الجديد، والتناغم مع حركة نولها، وهو يروح ويجيء بإيقاع متناسق واحد.

كل الحضارات البشرية، سواء انبثقت عن رؤية دينية، أم موقف وضعي.. صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار.. كانت تجد في حضارة الإسلام صدراً رحباً.. ولكن أياً من عناصرها ما كان يسمح له بالدخول مالم يكن يحمل جواز السفر الذي يتيح له أن يصل إلى هناك بالأسلوب المشروع.

كل الحضارات العالمية: يونانية، ورومانية، وبيزنطية، وهللينية، وفارسية، وهندية، وتركية، وصينية... وتراث الجماعات والشعوب التي عاشت في المنطقة: آرامية، ونبطية، وقبطية، وفينيقية... إلى آخره.. كانت ـ جميعاً ـ بمثابة حقول مفتوحة جال في أطرافها العقل الإسلامي،

فأخذ ورفض، وانتقى ومحص واختبر، وعزل واستبعد وفصل.. وعرف، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة، ما الذي ينسجم ونسغه الصاعد ويزيده دماً وحياة، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهزال، والدم الأزرق الفاسد، فكان يعرف جيداً كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك.

لم يكن مجرد اقتباس، ولكنه هضم وتمثل، وتطعيم مرسوم.. هدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار.. مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد!!..

إن هذا الموقف الحضاري المتبصر، المرن، الموزون.. حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعاً.. العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بعبارة أدق.. وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق: حماية التراث الحضاري البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء.

يقول لويس يونغ:

(... وهكذا أصبح المسلمون في المناطق الجديدة لإمبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة، تضم بين ظهرانيها أدباً واسعاً مكتوباً باليونانية والسريانية والبهلوية، إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه... لقد صبت جداول كثيرة في نهر الحضارة الإسلامية، ولعل أشدها تأثيراً رافد الحضارة الهيللينية، ثم الحضارة الفارسية التي أثرت في الفكر السياسي والعادات الاجتماعية، والحضارة الهندية التي أسهمت في علوم الطب والفلك، وخاصة في الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية؛ وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحة، مثل «ديوان الحسبة» الذي هو امتداد للمؤسسة

البيزنطية، وفكرة «المصلحة العامة» التي هي امتداد لـ Utiiitas Pubiica في التشريع الروماني؛ كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل «الوزير» من الفرس.

(. . . ولقد فتح «العرب» أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة، من يونانية وغيرها، مما قاد إلى نهضة كبرى في مجال الترجمة. . . ولعل من أهم دوافع الترجمة: هو حث الإسلام على المعرفة، ودعوته لتلقي العلم، وجعل ذلك أمنية عظمى في الحياة. . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية. . وهكذا كان مجال الترجمة واسعاً حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصل إلى أوربة عن طريق الترجمة العربية فقط، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت. . إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم؛ وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. . .)[(١)].

ويقول غرونباوم:

(. . . وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل؛ وعبروا عنها من جديد في صيغ مقبولة لدى ممثلي التقاليد الأقدم عهداً التي كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها. . . فالتفكير الإداري والسياسي من فارس، والطرائق الهلنستية في التفلسف والعلم الدنيوي، والطب والرياضيات من الهند، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء، وإن التعريب اللغوي لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها، وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية في داخل إطار إسلامي وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلامياً صادقاً؛ ومن

(١) العرب وأوربة، ترجمة ميشيل أزرق ص ٣٤ - ٣٦ (مقتطفات)، دار الطليعة، بيروت - ١٩٧٩م.

جهة أخرى فإن التوضيح التدريجي بحقائق الدين الأولى أخذ يساعد على توسيع الأساس الذي يقوم عليه التبادل بين الحضارات؛ وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين [٧٦٠ ـ ٨٤٠ م] إنما يمثل امتزاجاً ثانياً للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد «المحلية» التي استمدوا جزءاً منها من الكتب، إلا أن معظمها داخل في التركيب الجديد عن سبيل حقائق التعايش الفعلي...)(١).

ويقول دي لاسي أوليري:

(... لقد أصبح العرب، بحكم كونهم حكاماً لسورية، على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد، استخدموها في عدة مجالات: في بناء المجتمع والنظام الاجتماعي بشكل عام، وفي الفنون والحرف، وفي الحياة العقلية؛ وكان الأثر الإغريقي وثيق الصلة بهم، إلا أن العنصر الفارسي كان أوثق صلة... وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حد ما، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة وديناً جديداً، وتساوت الآن في ظل الخلافة والتحمت فيما بينهما في حياة مشتركة؛ ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة، ولا تزال كذلك إلى حد كبير، وتتمتع بحياة مشتركة، بمعنى أنه يوجد تفهم واع بين مختلف الأنحاء؛ وهكذا استطاع التأثير الفكري أو الديني أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر، كما أن واجب الحج إلى مكة قد أدى الكثير في تفتح الحياة المشتركة في نفوس هذه الجماعة، وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي.. فالحياة العامة في الإسلام مبنية إلى حد كبير على

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، تأليف عدد من المستشرقين، تحرير جي. ئي. غرونياوم، ترجمة، د. صدقي حمدي ص ٣٨ - ٣٩. مكتبة دار المتنبي، بغداد - ١٩٦٦م.

استعمال اللغة العربية، كوسيلة في الحياة العامة.. وكان هذا ذا أثر في منتهى الفعالية قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية، فكان هذا السبب هو الذي جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافي...)(١).

ويقول:

(... كانت أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد في الفكر الإسلامي هو الإنتاج المتزايد في ترجمة الكتب التي تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية، وكانت حصيلة ثمانين عاماً من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية نسخاً عربية لأكثر كتب أرسطوطاليس، وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة، وبعض آثار أفلاطون، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس، ومؤلفات أخرى في الطب وشروحها، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى، وكتباً هندية وفارسية عديدة...)(٢).

ويقول غوستاف لوبون:

(... كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية، واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم الذين مدنوا أوربة مادة وعقلاً وأخلاقاً، وتأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى...)(٣).

---

(١) الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، ص ٦٢، ٧٦ - ٧٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت - ١٩٧٢م.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٩٣.

(٣) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثالثة ص ٢٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٥٦م.

ويقول:

(. . . الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة اتباع محمد ﷺ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها، ككتاب أبولونيوس في المخروطات، وشروح جالينوس في الأمراض السارية، ورسالة أرسطو في الحجارة، إلخ. . . وإنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً، قال مسيو ليبري:

«. . . لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة في الآداب عدة قرون. . .».

(وعرب الأندلس وحدهم، إذاً، هم الذين صانوا العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد الأندلس. . كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة. . ولم يظهر في أوربة، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب، وعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون، وليانورد البيزي، وأرنود الفيلنوفي، وريمون لول، وسان توما، والبرت الكبير، والاذ فونش العاشر القشتالي. . . إلخ)[١].

وجاء في كتاب «الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية» لمؤلفيه أساتذة الفلسفة: جيمس وستفال توسون وفرانكلن شارلز بام، وفان نوستراند:

---

(١) المصدر السابق نفسه ص٥٦٧ - ٥٦٩.

(. . . في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب، وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه. . وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر. . وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظى إلى باليرمو وطليطلة لتعلم اللغة العربية، ودراسة العلوم العربية، مثل: إديلارد أوف بات، ودانيال أوف مورلي، وروجر أوف هيرفورد، وإسكندر نكوام، وكانت رسالة أديلارد أوف بات في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته أوربة الغربية في القرون الوسطى، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في إسبانيا، ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية. . . وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره. . .)[1].

وليست هذه سوى نماذج، وهنالك غيرها مئات الشواهد بل ألوفها!! . .

(١) عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، الطبعة الثانية، ص ٤٥ - ٤٦، دار المعارف، القاهرة - ١٩٦٠م.

الإبداع بعد الانتقاء...

لكن العقل المسلم لم يقف عند هذا الحد.. كانت هنالك وظيفة أخرى تنتظره، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفاً، ولقد أحسن تنفيذها حقاً: الإضافة والتجديد والإغناء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء، بعد إذ لم تعد صالحة تماماً لحاجات العصر الجديد، ومطالب الإنسان المؤمن الجديد.

إن كثيراً من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمراً «رجعياً» وكانت حركة الإسلام «التقدمية» تقضي بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاماً مع إيقاع الحياة التي صاغها الإسلام.

ليس هذا فحسب، بل إن العقل الإسلامي المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيماً حضارية جديدة بالكلية، وأن يقدمها للعالم ثماراً يانعة لجهده الخاص.

فليس كل ما صنعه المسلمون هو حماية التراث الحضاري القديم، وإعادة شرحه وتفسيره، وإضافة بعض الشروح والهوامش عليه.. وكان ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضاري، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقل أن يشذ على مواضعاتها، ويخرج عن حدودها المرسومة.

لقد أبدع العقل الإسلامي، ابتداء، قيماً جديدة، وابتكر واكتشف الكثير الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي بُنيت عليها فيما بعد حضارات أخرى في مشارق الأرض ومغاربها.

وهكذا فإن الدور «الإغنائي» للحضارة الإسلامية يتوجب أن يعالج من خلال هذا المنظور الواسع، وألا يغمط حقه وهو يقلص، لهذا السبب أو ذاك، لكي يغدو مجرد تابع أمين وذكي لمعلمي اليونان القدماء، قدير على فهمهم وطاعتهم وشرح غوامضهم.. وليس ثمة وراء هذا أية محاولة للنقض والهدم والتبديل.. أو لإبداع قيم ومعطيات وتقاليد جديدة لا علاقة لها البتة بحضارات الأقدمين.

ولقد كانت الرؤية الجديدة قديرة على التألق والابتكار.. وكان العقل الإسلامي جديراً بالمهمة.. وهكذا صنع الذي صنع.

والشهادات عن دور العقل الإسلامي في إغناء الحضارات البشرية، والإضافة عليها، وارتياد الآفاق المجهولة، واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة، كثيرة غزيرة، صدرت عن كتاب ودارسين وعلماء وأكاديميين شرقاً وغرباً، بحيث يصعب على المرء أيها يأخذ وأيها يدع.. ولكن لا بأس في اقتباس نماذج فحسب من هذا الخضم العميق؛ لكي تكون بمثابة مؤشرات على درب العطاء الطويل..

لويس يونغ:

(... إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم، وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة؛ يجب أن لا تغيب عن ذهننا ـ إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية ـ تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من ذلك لوناً جديداً سباقاً فريداً...)[١].

(١) العرب وأوربة ص ٣٦.

(. . . ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوربة؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء ببعض العادات الشعبية، وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية، مثل: «السمت Azimuth»، و«سمت الرأس Zenith»، وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب: كالزركلي، والبتاني، وأبي الفداء. . إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية. . .)[1].

سارتون:

(. . . حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية؛ وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها. . .)[2].

سيديو:

(. . . تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ؛ وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر، وجميع ذلك تأثرت به أوربة بحيث يؤكد القول:

إن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة، لقد حاولنا أن نقلل

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٠.

(٢) جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوربية، الصفحات ١٧٠ - ١٧١ - ١٩٢ دار الرائد، بيروت - ١٩٦٧م.

من شأن العرب، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء، وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد لهم مايستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً . . .)[١].

دريبر:

(. . . ينبغي عليّ أن أنعي على الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوربي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا؛ أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيراً بعد الآن مخفية عن الأنظار؛ إن الجور المبني على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. . .)[٢].

نيكلسون:

(. . . إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق، وقد استمد منها العلم الحديث ـ بكل ماتحمل هذه العبارة من معان ـ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض. . .)[٣].

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

من منجزات المسلمين العلمية...

ونريد الآن أن نؤشر فحسب على عدد من الإضافات الإسلامية في بعض الحقول العلمية الصرفة.. أما الإنجازات بتفاصيلها فيمكن أن يجدها القارئ في أكثر من كتاب.

في الرياضيات:

أسهم المسلمون في إغناء المعرفة الإنسانية، وقد تابعوا دراسة علم الحساب إلى مدى بعيد. فالدولة الإسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة، والجزية، والخراج، وتقسيم الإرث.. كما نص على ذلك القرآن الكريم.

في الجبر، برز محمد بن موسى الخوارزمي [توفي ٨٥٠م]، الذي يعود إليه تأسيس علم الجبر، وهو الذي تعمق في هذا العلم مدى أبعد من الإغريق، وكتابه «كتاب الجبر والمقابلة» قدم للعالم تعبيراً خاصاً عن هذا الفرع من الرياضيات.. ويعد كتابه أفضل كتاب في مادة الجبر حتى الأزمنة الحديثة.

وأدخل البتاني [توفي ٩٢٩م]، النسبة في علم المثلثات كما هي معروفة اليوم؛ وتبعه عالم عربي لامع في الرياضيات هو أبو الوفا [توفي ٩٩٧م]، الذي اكتشف معادلة لجمع الزوايا.. وهو الذي اكتشف أيضاً الخط الذي يقطع القوس.

أما الهندسة، فقد كانت متقدمة عند المسلمين، وهم الذين استخدموها في مجالات عملية، كالمساحة وإنشاء طواحين الماء، إضافة إلى استخدامهم إياها كثيراً في أغراض الزينة في فنهم؛ ولعل أهم إسهام للعرب في حقل الرياضيات كان إدخالهم الرموز التي سموها «الأرقام الهندية». . والمسلمون الذين بسطوها وجعلوها طيعة؛ بحيث قبلها العالم على مر العصور.

في الفيزياء:

عارض ابن الهيثم [توفي ١٠٣٩]، الذي برز في علم البصريات، إقليدس وبطليموس في زعمهما أن العين ترسل إشعاعات إلى الشيء المنظور تمكن من رؤيته، وأصر على أن عملية الرؤية تحدث عندما يرسل المنظور إشعاعات تدخل العين، وقد وجد لدى تفحصه قدرة القمر على الإشعاع، إن القمر ليس بالجسم الصقيل كالمرآة، ومن ثم اكتشف أن جميع الأجسام الملونة تعكس الضوء، وأن الضوء واللون متطابقان؛ ولإثبات فرضياته قام بتجارب أدت به إلى اختراع آلة التصوير، وتشير الأبحاث الحديثة في مخطوطاته إلى أنه كان مدركاً تمام الإدراك دور الرياضيات في نظريته في البصريات، وقد خلص الباحثون إلى اعتباره بكل جدارة مؤسس علم الفيزياء بالمعنى الحديث للكلمة.

أما البيروني [توفي ١٠٥٠م]، فقد اكتشف عن طريق التجربة عدداً من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما أسماه «المخروط» ويعد هذا أول مقياس للثقل النوعي.

أما الخازني [توفي ١١٠٠م]، فقد استخدم مقياساً للكثافة شبيهاً بذلك المقياس الذي استخدم قديماً في الإسكندرية للتحري عن خواص السوائل، كما بحث مشكلة كثافة الماء عند منتصف الكرة الأرضية، تلك المشكلة التي تناولها بعينها روجر بيكون.

في علم الفلك:

الذي لقي ترحيباً كبيراً لدى المسلمين بسبب اهتمامهم «بعلم الميقات» الذي يحدد مواعيد الصلاة واتجاه مكة المكرمة.. برز عدد من العلماء منهم: الفزاري [توفي٧٧٧م]، الذي أنشأ الاصطرلاب، ثم البتاني [توفي ٩٢٩ م]، الذي قام ببعض الأرصاد الفلكية الهامة وبعض المقاييس، وتبعه عمر الخيام [توفي ١١٢٣م]، الذي صمم تقويماً جديداً هو التقويم الجلالي، وقد أخطأ الخيام بيوم واحد في كل خمسة آلاف سنة؛ أما أبو معشر [توفي ٨٨٦م] فقد بحث بشكل دقيق في العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر.

إلا أن أهم إنجازات المسلمين في علم الفلك تتمثل في تصميمهم المرصد، وعلى الرغم من أن الإغريق صمموا أدوات فلكية، منها: الاصطرلاب، إلا أن المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر للوجود إلا في العصر العباسي.. وقد استخدمت فيه أدوات من مثل: ذات الربع، والاصطرلاب، والمحلق، والكرات الهندسية.

في الكيمياء:

«حيث لم يستطع الأقدمون التمييز بينها وبين الصيدلة لعدة قرون»، أجريت تجارب متقدمة، وقطعت أشواطاً أكبر مما تكهن به الإغريق، وبرز عدد من الكيمياويين، كان من أبرزهم: جابر بن حيان [توفي حوالي ٨١٥م]، الذي أجرى عدداً من التجارب على المواد العضوية الحيوانية والنباتية.. وسجل ملاحظاته وتجاربه التي أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة في التاريخ؛ وقدم وصفاً كاملاً لعملية تحضير الفولاذ، وتصفية المعادن الأخرى، وعملية صبغ الأقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع الملابس الواقية من الماء، وكيفية حماية الحديد من الصدأ؛ كما عرف

صناعة حامض الخل إلى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيمياوية، كالتبلور والانحلال والتكرير.

وكان الرازي، رغم شهرته في ميداني الطب والفلسفة، ذا قدم راسخة في مجال الكيمياء؛ إلا أن اهتمامه تركز على الكيمياء المختبرية أكثر من الكيمياء العامة وفرضياتها، وهو صاحب مذهب في دراسة الكيمياء، وأخذ يوسع مجال المعرفة الكيمياوية شيئاً فشيئاً بجهود الباحثين في هذا المضمار؛ وقد استخدم عدة مواد في تجاربه، منها: كل المعادن المعروفة في عصره، وهو أول من وضع نظاماً لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن.

هنالك أيضاً أبو منصور موفق، أول كيمياوي ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاس، وقد شرح كيف يعطي الجص إذا سخن نوعاً من الكلس لتضميد كسور العظام، وتعرف هذه المادة اليوم بجص باريس، وتستخدم كثيراً في الصناعة، وخاصة صناعة القوالب.

ولقد دأب الكيمياويون المسلمون على تجاربهم بكل حرية إلى أن توصلوا إلى الكشوف العلمية التي أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلها المعاصر.

في علم النبات:

نلتقي بعالم الطبيعة القرطبي أبي جعفر الغافقي [توفي ١١٦٥م]، الذي قام بجمع مجموعات من النباتات من إسبانيا وشمالي إفريقية، وأطلق عليها تسميات بالعربية واللاتينية والبربرية، ووضعها بدقة في كتابه «الأدوية المفردة»، كما نلتقي بالصيدلي وعالم النبات العظيم ابن البيطار [توفي ١٢٤٨م]، الذي اعتمد في كتابه على أعمال الغافقي، وارتحل إلى شمالي إفريقية وإلى سورية باحثاً في حياة النباتات، وقد ذاعت شهرته من خلال كتابيه «المغني في الأدوية المفردة» و«الجامع في الأدوية المفردة» اللذين

يبحث أولهما في المواد الطبيعية، ويبحث ثانيهما في الحيوان، والنباتات، والمواد المعدنية ذات الخواص الطبية، وقد صب عنايته على المعلومات التي زوده بها سابقوه، ولكنه أضاف ثلاثمئة مادة جديدة إلى المواد المكتشفة سابقاً، وعددها: ألفَ وأربعمئة.

في الطب:

اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبية التي تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا أن الأطباء المسلمين ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي، وقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية، وأحرزوا تقدماً كبيراً في فن الاستطباب؛ وكان من أشهر الأطباء: الزهراوي [توفي ١٠١٣م]، الذي يضم كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» قسماً عن الجراحة يعتبر أعظم إسهام في هذا الموضوع في القرون الوسطى، والرازي [توفي ٩٢٥م]، الذي كان أول من ميز بين مرضي الجدري والحصبة، وذلك في كتابه «في الحصبة والجدري»، أما كتابه الكبير «الحاوي» فيعتبر موسوعة طبية يلخص فيه معارف الإغريق والفرس والهنود في الطب، ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية.. أما في طب العيون فهنالك علي بن عيسى، وعمار الموصلي «وكلاهما عاش في النصف الأول من القرن الحادي عشر»، وقد ألف كل واحد منهما الكتب حول الطب، ووسعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية، وأضافا التعليمات العديدة حول إجراء العمليات، كما أضافا ملاحظاتهما الشخصية... وإلى الأطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ونظام فحص المريض بشكل كامل، ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب، وتقديم نتائجهم في كتاب علمي واضح للطلاب وللأطباء معاً؛ غير أن أكبر إنجاز طبي للمسلمين يتجلى في إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على أكمل وجه، وفق نظام دقيق لا يزال يعمل به حتى الآن.

في علم الجغرافية:

صحح المسلمون في كثير من الأحيان معطيات الجغرافيا الإغريقية، بعد أن قام الرحالة المسلمون بكشوفهم الجديدة في الأصقاع البعيدة؛ وقد امتد شمول علم الجغرافية العربي من الجزائر إلى الخالدات غرباً إلى كوريا، واحتمال وجود اليابان شرقاً، وأصدر الجغرافيون الكتب التي تصف الطرق والمدن الإسلامية، وأسهموا في توسيع مجال علم الجغرافيا؛ ومن أبرز هؤلاء: المقدسي [توفي ١٠٠٠م]، في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، الذي تضمن بحوثاً في المناجم، واللغات المحلية، وعروق البشر، والعادات القومية، والديانات والأوزان والمقاييس... إلخ... كما كان هناك جغرافيون هامون في القرن العاشر هم: البلخي، والإصطخري، وابن حوقل.

وعرف القرن الثاني عشر أعظم عمل جغرافي عربي منظم في كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي [توفي ١١٦٦م]، الذي عمل في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني ملك صقلية في باليرمو؛ ويضم كتابه العظيم أعمال الجغرافيين السابقين، كما يضم المعلومات التي رواها الرحالة، ويشير الكتاب إلى افتراض أن الأرض كروية... وبصورة عامة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في رسمهم الخرائط الجغرافية، ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة ـ أي الجغرافية المحلية ـ ويعود إليهم فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض[1].

---

(١) لويس يونغ: العرب وأوربة ص ٧٢ - ٧٤، مقتطفات من ص ٩٨ - ١٠٦، وانظر عن إسهامات المسلمين العلمية بالتفصيل: جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٢٠٣ - ٣٥١، العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. د. أحمد عيسى: آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب، د. علي عبد الله الدفاع: إسهام علماء المسلمين في الرياضيات، د. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب. قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات
=

أما في مجال العلوم التطبيقية:

فيكفي أن نشير إلى دور الحضارة الإسلامية في تطوير استخدامات الري والميكانيك، وتحسين صناعة الورق، وتكرير السكر واختراع البارود[١].. وغيرها الكثير.

وليس ثمة من داع لاستعراض، أو حتى للإشارة، إلى إسهامات المسلمين الكبيرة في حقول العلوم الإنسانية، كالتاريخ، والاقتصاد، والقانون، والسياسة، والتربية، والنفس، ومناهج البحث، والاجتماع، والنظم الإدارية، والآداب والفنون.. إلى آخره، وتأثيراتها في مجرى الحضارات البشرية، وخاصة الحضارة الغربية، فهي أوضح للعيان، وأشد حضوراً من أن يشار إليها أو يدلل عليها.




= والفلك، د. ياسين خليل: التراث العلمي العربي، عبد الله الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات، حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، إدوارد جي براون: الطب العربي، د. توفيق الطويل: العرب والعلم، الدوميلي: العلم عند العرب في القرون الوسطى، ماجد عبد الله الشمس مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، دائرة المعارف الإسلامية.. إلى آخره...

(١) انظر: جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٣٣١ - ٣٥١.

النقل الجغرافي والانتشار..

وثمة الاتجاه الثالث الذي مارسه العقل المسلم حضارياً: النقل الجغرافي والانتشار.

إذا كانت الحضارة الإسلامية في الأولى قد مارست انفتاحاً عقلانياً على تراث الحضارات السابقة، وإذا كانت في الثانية قد حورت فيها وفسرت وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت.. فإنها هاهنا تمارس انفتاحاً إنسانياً، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات، ويرفض الانانية والاستعلاء..

لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علم، أياً كانت الجهة التي قدم منها، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم ويلفها بالنور.. لقد وضعوا كشوفهم ومعطياتهم أمام الجميع، ونادوا بأعلى صوت: إن من يرد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح.. لقد كان عطاؤهم - بحق - غير مجذوذ.

إن غوستاف لوبون يقول بصراحة:

(... لقد كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية، فأوربة مدينة للعرب بحضارتها؛ ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حال أوربة عندما أدخل العرب الحضارة إليها...)[1].

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٧٠ - ١٧١.

ويعلنها لكلير بكلمات واضحة:

(... نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها في الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وأيةِ فائدة جناها العلماء اللاتين منها، فكانت هذه الترجمة أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربي المنتعش بجانب الغرب...)[١].

ولا زلنا نذكر كلمة مسيو ليبري التي مرت بنا قبل قليل:

(... لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة في الآداب عدة قرون...)!!!.

ربما يكون، في هذا الإسراف في أخلاقية العطاء، ما يثير نقداً أو اعتراضاً.. إذ كيف تسلم خصمك السلاح الذي سيقتلك به، وفي الحضارات جوانب مما قد يتحول إلى سلاح للقتل فعلاً؟!!..

إن الغربيين في قرننا هذا صنعوا القنبلة الذرية، وأعقبوها بالهيدروجينية، والنيوترونية.. إلى آخره.. ولم يسمحوا لأنفسهم قط أن يعطوا معادلاتها الرياضية والطبيعية لأيدي وعقول الأمم الاخرى. .اللهم إلا من يحسبونه امتداداً لهم.. أفما كان أولى بالمسلمين أن يتوقفوا بعض الشيء ويراجعوا حساباتهم قبل أن يمضوا في العطاء حتى آخر نقطة؟!!

هذه مسألة أخرى.. ويكفي العقل الإسلامي شرفاً أنه كان عقلاً «إنسانياً» يعمل من أجل الإنسان أياً كان موقعه في الزمان والمكان، كما علمته عقيدته أن يعمل.

كلنا يعرف الجسور التي انتقلت عليها معطياتنا الحضارية إلى عالم الغرب الغارق ـ يومها ـ في سباته العميق.. إسبانيا.. جزر البحر

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٩٢.

المتوسط.. شواطئ آسيا وإفريقية.. والأناضول.. فضلاً عن تجارب الاحتكاك التاريخي البشري، في السلم والحرب بين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب.

(... لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوربة ـ يقول «لويس يونغ» ـ وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسور هي بترتيب الأهمية: إسبانيا، وصقلية، وسورية.. وتبقى إسبانيا أهم طريق مرت عبره الحضارة العربية إلى أوربة، إن التأثير العربي الدائم في إسبانيا ثقافياً ولغوياً، لم يكن فقط بسبب تواجد السلطة العربية في هذه زهاء ثمانية قرون، فإن الحضارة العربية تجاوزت أوربة حيث غدت إسبانيا منطلقاً لترجمات في الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع، وذلك في مدينة طليطلة التي استعادها النصارى عام ١٠٨٥م... وكانت الثقافة العربية تنتقل كذلك إلى أوربة عن طريق الباحثين إلى جنوبي فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه، وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزاً ثقافياً هاماً لمدة قرنين؛ كما غدت مدن أخرى مراكز للتأثير العربي الحضاري وهي: لييج وكورز وكولون؛ ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية إلى أجزاء أخرى من ألمانيا وإلى إنكلترا، وكانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها إلى أوربة.. ولقد شهد القرن الثاني عشر حضارة نصرانية إسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين التي اتبعها النورمانديون في صقلية؛ ولسوء الحظ فإن هذه الظاهرة من التعاون الحضاري فريدة في تاريخ العلاقات بين العرب وأوربة، وقد أخذ النورمانديون عن العرب «تقاليدهم» وآدابهم وعلومهم، واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وضربت النقود على النمط العربي.

وكانت سورية الجسر الثالث للحضارة العربية العابرة إلى أوربة خلال الحروب الصليبية... في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية

والصناعية، أما في مجالات العلوم «الصرفة» والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير في نقل الحضارة العربية إلى أوربة، إلى جانب ذلك فإن الأدب الأوربي اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية إلى أوربة من الفن القصصي والأسطوري للحضارتين البيزنطية والعربية؛ وكان للتجار الفضل الكبير في نقل الثقافة الإسلامية إلى أوربة عن طريق سورية في زمن الصليبيين، فقد كانت الطرق التجارية الإسلامية تنطلق من سورية والبحر الأسود، وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية، مثل: جنوة ولوكا والبندقية، وكانت البضائع تنقل عبر جبال الألب إلى المراكز التجارية الكبرى في أوربة، مثل: أوكسبورغ ونورنبرغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها.. أما الطرق التجارية الشرقية فكانت تنطلق من المناطق الشرقية للبلاد الإسلامية عبر روسيا وإلى بلدان شرقي أوربة...)[1].

ومهما يكن من أمر فإن الحضارة الإسلامية مارست وظيفتها في ميدان النشر الجغرافي بالقدرة نفسها على الفاعلية والعطاء التي مارست بها وظيفتيها السابقتين... لقد كانت في كل الأحوال تعمل من أجل الإنسان.

وثمة ما يجب أن يقال في ختام هذه الصفحات.. إننا لو مارسنا تحليلاً لحجم الدور الذي أداه الإسلام «حضارياً» مقارناً بالأدوار التي أدتها المذاهب والحضارات الأخرى، سواء أكانت وضعية أم دينية محرفة.. فإننا سنجد المسافة واسعة ممتدة يصعب تقريبها، لاسيما إذا وضعنا في الحسبان الوظائف الكبرى الثلاث التي مارستها حضارة الإسلام.

إنه لا الحضارات السومرية والبابلية والمصرية، ولا الحضارات الإغريقية واللاتينية والبيزنطية والهللينية، ولا الحضارات الفارسية والهندية والصينية، على ماقدمته جميعاً من عطاء زاخر، بقادرة على أن تسامت هذا

(١) العرب وأوربة، مقتطفات من الصفحات ١١٩ - ١٢٣.

الدور.. وأنه لا الفلسفات اليونانية والهندية، ولا المذاهب الوضعية الأوربية منذ عهود النهضة والتنوير، وحتى طوباويات الاشتراكيين الفرنسيين والإنكليز، ووجوديات: هيدجر وكيركغارد وسارتر وكامي، ومثالية: هيغل، ومادية ماركس وانغلز.. بقادرة أيضاً على أن تسامت الإسلام في قدرته، ليس فقط على تكوين الحضارة وإنمائها، ولكن أيضاً في تحويل القيم والأفكار إلى واقع منظور، وتجربة معيشة، وخبرات تتشكل حية نامية في مساحات الزمان والمكان.

أما الحضارة الغربية المعاصرة، بأجنحتها كافة، فيكفيها جنوحاً في الشخصية وانحساراً في الدور الوظيفي ما تعانيه من اختلال محزن في التوازن بين الثنائيات الذي قدر الإسلام على التحقق به بشكل يثير الدهشة والإعجاب.. توازن بين الوحي والعقل، والعدل والحرية، والضرورة والجمال، والفردية والجماعية، والروح والجسد، والطبيعة وما وراءها، والوحدة والتنوع، والمنظور والغيب، والمنفعة والأخلاق، والقدر والاختيار، والحياة والموت، والدنيا والاخرة، والفناء والخلود.

إن البريق الذي يشع من معطيات الحضارة الغربية فيبهر الأبصار..لن يتجاوز جلدها ـ بحال ـ إلى صميم التركيب البيولوجي والسايكولوجي لشخصية هذه الحضارة الجانحة.

وإنه حقاً للمصير الذي ينتظر كل حضارة ترفض الإيمان بالله.





الفصل الثالث

الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية



١

بعد هذا كله.. هل نطمح إلى استعادة دورنا الحضاري دون أن نتحقق بالشروط الضرورية لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، تماماً كما تشكلت عقول أجدادنا الرواد؟

أبداً.. فبدون هذه الشروط التصورية والمعرفية والمنهجية.. لن نقدر على الإمساك بالحركة التاريخية لكي تمنحنا مكاناً تحت الشمس، وترد إلينا دورنا المفقود.. وهو دور (حضاري) حللنا ـ بإيجاز ـ طبيعة وظائفه وأبعاد تحققه التاريخي.

ولنا، في هذا المقطع، أن نرتد مرة أخرى إلى الجذور.. إلى مبادئ الإسلام نفسها، لكي مايلبث أن يتأكد لنا البعد الحضاري الذي يتغلغل في نسيجها.. في محاولة لتصور (الهيكل) الذي يقوم عليه.

وتصبح مسألة إعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، ليكون بمستوى الدور الذي يتوخى منه.. ضربة لازب وقدراً محتوماً.. وإلا فإن مكاننا ذيل القافلة.. فلن نعرف أبداً مايجري في المقدمة.. ولا مايراد بنا.. ولا إلى أين نسير.. ولن تكون لنا ـ أبداً ـ خارطة على صفحة هذا العالم.

باختصار يناسب حجم هذه المحاولة.. فإن الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية يمكن أن يتمثل بمثلث متساوي الأضلاع، محكم الزوايا، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة، يقوم أحدها على الآخر، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل.

وسنجد، دون تمحل ولا تشنج ولا تعمد مسبق على حساب المنهج، كيف أن الأطراف الثلاثة هذه تؤول، من خلال معطياتها الخاصة وطبيعة

علاقتها بالطرفين الآخرين، إلى موقف حضاري، سداه العمل والإنجاز، ولحمته الكشف والإبداع.. ولنبدأ بالأرضية.

٢

لقد أريد للعالم أن يكون صالحاً لاستقبال الإنسان، مناسباً لقدراته الخاصة، مستجيباً ـ بقدر ـ لمطامحه وأهدافه.

لقد هيئت أرضية العالم لكي تحرث.. وتزرع.. ويكون الحصاد.

وبانتظار العقل الذي سيفكر.. واليد التي ستنفذ.. والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد.. فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المرسوم.

تماماً كما سيتشكل القادم الجديد نفسه، كما سنرى، بالصيغ والشروط التي تعينه على تنفيذ المطلوب:

والقرآن الكريم يحدثنا طويلاً عن سائر (العمليات) التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات.. بل إنه يمضي بنا إلى ماوراء ذلك اليوم الذي قال فيه الله سبحانه للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

إن التوجه الحضاري في القرآن يمتد إلى ما قبل آدم.. إنه كل فعل امتزجت فيه إرادة الله وكلمته بالمادة فصاغتها كتلاً كونية، أو نظماً طبيعية، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان.

وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله، فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية «التكوين» هذه، وليس لنا ـ كذلك ـ أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها.

إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثاً «ميتافيزيقيا» يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين، والإسلاميين المتأثرين بهم، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل... وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية ـ التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم «فعلاً» من الكون، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات.. إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق، والبحث عن «العلة» و«المعلول» و«متناهي الأول»... إلى آخره.. وكل ما يبيّنه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماض في حركته الدينامية نحو الاتساع الدائم بإرادة الله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وأن هذه الهدفية على المستوى الكوني، الكلي، وهذه الحركة صوب الاتساع، لابد وأن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مراراً، حيث تطوى السموات كطي السجل للكتب، وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيداً ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض، وتمعنا فيها، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلاً بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يؤديه، وبالقصد والجدوى والنظام والإعمار والغاية التي بعث من أجلها؛ وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت ٩ ـ ١٢].

إن كتلة العالم والطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، قد سخرت للإنسان تسخيراً، وقد حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فاعلاً. . . ولنتصور كيف سيكون الحال، على مستوى القدرة على التحضر، لو كانت الشمس أو القمر، على سبيل المثال، أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقعهما المرسوم. . ولو كانت الجاذبية أخف قليلاً أو أثقل قليلاً عن شدها المحسوب، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ماهي عليه من دقة معجزة في النسب المحددة. . ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح، والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عمودياً، وشكلها غير بيضاوي. . إلى آخره.

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الإنكليزي «أرنولد توينبي» ومقاييسه الحضارية، فإننا سنرى في العالم «تحدياً مناسباً» للإنسان، ليس «معجزاً» ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للرد.

وكأن إرادة الله سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد لكي يحقق الإنسان المدى الأقصى الذي يحقق خلافته في الأرض، فلم يشأ الله أن يمهد العالم تمهيداً كاملاً، ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية، لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً وإبداعاً، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السابية المطلقة، ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض أساساً؛ كما أن الله سبحانه لم يشأ، من جهة أخرى، أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض، يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع، الأمر الذي يتنافى أيضاً ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الأرض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٢٧ ـ ٣٠].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٠ ـ ١٣].

والواقع أن الآيات الخاصة بمسألة التسخير «المتوازن»، المناسب، هذا، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعد ولا تحصى.. إنه الحد «الوسط» الذي يتحدى الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار، ويتجاوز التكشف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما رد الفعل والإبداع.

إن هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا «التسخير» للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي أنيط بالإنسان في الأرض، وهي تمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السلبية لعديد من المذاهب الوضعية التي جردت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة، وحريته في حواره مع كتلة العالم، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها الدينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لا راد له، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به.

وسواء التزم المذهب الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدد، كما فعل هيغل، الفيلسوف الألماني، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه «الخارجية» كما فعل ماركس وأنغلر، فإن الإنسان يغدو تابعاً وليس متبوعاً، وإن الإنجاز الحضاري يجيء وكأن الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب، وإنه ليس أمامه إلا أن يتشكل وفق مقتضيات مسيرة أكبر حجماً من إرادته، وأوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء.

إننا نلتقي ـ من خلال الرؤية الإسلامية ـ بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها.. صيغة السيد الفاعل المريد الذي سخرت وأخضعت له مسبقاً كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض، وإعماره للعالم على عين الله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [ابراهيم: ٣٢ ـ ٣٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

٣

الحد الآخر للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية هو «الإنسان».. والمسألة تبدأ بحادثة خلق آدم عليه السلام باعتبارها حجر الزاوية في

الوجود البشري.. في الظروف والدلالات والرموز والإرهاصات التي رافقته وأعقبته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٩].

تلك هي الخطوط العريضة، الواضحة، لمسألة الوجود البشري في العالم.. الصورة المتماسكة البينة، التي تساقطت عندها قرناً بعد قرن عشرات المحاولات التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي «الإسرائيليات» أو التبرير العقلي المتوتر.. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها. إننا ـ من خلال هذا العرض المركز ـ نلتقي بقواعد أساسية ومبادئ كلية تتجاوز الجزئيات والتفاصيل، وتلقي ضوءها الشامل على كل مايهمنا في الموضوع: خلافة الإنسان في الأرض، ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب، وتكريمه الاقصى بسجود الملائكة له.. مجابهته بإبليس وبدء «الصراع» بين الطرفين و«الهبوط» الزمني «الموقوت» إلى الأرض، كأول

تجربة من تجارب هذا الصراع.. «تعليق» الدور البشري في العالم على تلقي «الهدى» من الله وحده، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان «الحر» إزاء هذا الهدى في الأرض والسماء.

تلك هي المبادئ الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني، والتي تعيننا على تفهم الرؤية الحضارية للإسلام بأبعادها الشاملة، وهي مبادئ تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو إزاءه، غامضة متفككة مضطربة، كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري، وبدء الخليقة، وأصول الحضارات.. لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للمصادفة العمياء، أو لتطور وسائل الإنتاج المادية في الخارج، أو لمحاولة «العقل الكلي»، الغامض غير المحدد، لأن يعبر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلي، أو لرغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم، غير المحدد والمبرر، لحياة لاتمتلكها هي نفسها، الأمر الذي يشكل تناقضاً مكشوفاً إزاء تحديد مصدر الحياة.

لقد أراد الله للإنسان أن يستخلف في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة «الحرة» لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية.. ولكي لايحس الإنسان «بالدونية» ولا تدور في خاطره أية فكرة عن «سلبية» دوره في العالم، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف، وأمر الملائكة أن يسجدوا له.. وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة.. الأمور التي لابد منها لأي إبداع حضاري على الأرض.

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قد مهد تمهيداً للدور البشري على أرضيته، وما سنشير إليه بعد قليل من ضرورة

«التعاليم» التي كانت تتنزل حيناً بعد حين لكي «تضبط» و«تنظم» حركة الإنسان في العالم، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية، أو الحضارية في العالم. ولابد من الإشارة هنا إلى أن مسألة «الاستخلاف» تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم، الأمر الذي يؤكد مدى ثقلها في تصميم للرؤية الإسلامية:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤

أما الحد الثالث للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية فيتمثل ببرنامج العمل، أو «الدين» بعبارة أخرى.. والدين في المنظور الإسلامي هو «منهاج شامل» للحياة يتحرك «الإنسان» على «أرضية العالم» وفق مقولاته وتوجهاته وخططه وأهدافه، ويمارس «استخلافه» الحضاري للطبيعة التي «سخرت» له وفق تعاليمه ومعطياته.. ودونه يضيع الإنسان، ويفقد القدرة

على أداء وظيفته المرسومة.. أي ـ بعبارة أخرى ـ يفقد إمكانية تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقي الصعب الطويل.. وهكذا تلقى آدم منذ لحظة هبوطه الأولى «كلمات» من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل.

إن الدين، وفق هذه الرؤية، يبدو برنامجاً حضارياً.. وهو يكمل ويناظر ويناسب طرفي المسألة الآخرين: الأرضية والإنسان، وما دامت الحياة الدنيا تعني ـ في المنظور الديني عموماً ـ تجربة اختبار وابتلاء، فمعنى هذا أنها تتطلب منا عملاً دائماً وإبداعاً متواصلاً.. ولكن أي عمل وإبداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى «أجلها المسمى»؟.. إنه ليس ارتجالاً كيفياً، ولا مواقف جزئية مفككة، كما أنه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف.. إنما العمل والإبداع اللذان ينبثقان عن تخطيط مرسوم، وينطلقان من مواقف كلية شاملة، ويصدران عن نظام مبرمج إلى غاية دايناميية لا حدود لها أبداً تلك هي «عبادة الله» والتوجه إليه والتلقي عنه وحده.

وضوح... الهدف

إن «عبادة الله» وحده، بالمفهوم الديني الشامل، هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان، فرداً وجماعة، أن يصعد إليه أوجه نشاطاته الحضارية كافة.. وبينما ترسم المذاهب الوضعية ـ هي الأخرى ـ أهدافاً لحركتها الحضارية، تتميز حيناً بالغموض والمثالية، كما هو الحال عند هيغل، وتتميز حيناً آخر بالتحديدات المادية الصارمة، كما هو الحال عند ماركس وأنغلز.. الأمر الذي قاد الأول ـ وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال «الدولة» ـ إلى أن يعطيها المبررات الفلسفية كافة لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري، وقاد الآخرين إلى إعلان مبدأ دكتاتورية الطبقة العامة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها مادامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه القوى المعارضة كلها، والتي لاتنسجم وبداهات التحضر البشري الحر.

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لا ريب فيها، وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع «الدينامية» التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات؟ ماذا بعد تجلي المتوحد ودكتاتورية الطبقة العاملة؟!..

إن التجربة البشرية أوسع دائماً، وأغنى وأشمل من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون إنشاء مجتمعات لاتزيد

في أنشطتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة، وعمل دائب وإنتاج متزايد.. أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيغلي ويسوسها عرق ممتاز، مبررة سلفاً كل ممارستها العدوانية ونزعاتها الشوفيفية.

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه، تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق، نجد الموقف الإسلامي يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله الفاعليات والمعطيات كافة: عبادة الله، والتوجه إليه، والتلقي عنه.. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان، إلا لكي يعتمدها باختياره، في التساوق مع هذا النظام، والاندماج في المجرى العام لخلائق الله جميعاً، تمييزاً له ـ بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة، ومكانته كسيد للعالمين ـ عن سائر خلق الله.. وثمة فرق شاسع، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان، وهو متساوق مع نواميس الكون، متناغم مع مسيره ومصيره، أو وهو منشق على هذه النواميس، متنافر معها بدءاً ومصيراً..

والواقع أن الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ ينسى في معظم الأحيان أن دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال، وما يتخذه من مواقف، ويلتزمه من أهداف، وأنه فيما وراء ذلك محكوم بسنن ونواميس إلهية تفوق طاقاته

وقدراته جميعاً، ودونها لايمضي حق وعدل، ولا يستقيم نظام كوني، ولا وجود بشري، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعاً وفق طرائق محددة منضبطة تؤول بهم جميعاً إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق، ودفعتهم إليها إرادته التي لا راد لها.. والآيات التالية تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٣].

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠ ـ ٧١].

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

حدود الجبر والاختيار...

ولو تمعنا قليلاً في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون ـ بالحق والعدل والنواميس، وباعتبارنا جزءاً من خليقة الله، شئنا أم أبينا ـ في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا: إننا مجبرون على أن نولد، ومجبرون على أن نموت.. إننا مجبرون على أن نبعث، وأن نحاسب على أعمالنا، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العادل المحفز.. إننا مجبرون على أن ننتمي إلى هذا الإقليم أو ذاك، إلى هذه القبيلة أو تلك الأمة، وإلى هذا الجنس أو ذاك، وإلى هذا اللون أو ذاك.. مجبرون كذلك على أن نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسية، وعلى أن نتقلب في تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح، والغم والانشراح، والخوف والطمأنينة، والتمزق والتوحد.. وفوق هذا وذاك فإننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة، وسماتنا الخاصة وبصمات أصابعنا.. ودون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة، وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها.. دون هذا «الجبر» تضيع البشرية، ويحدث التناقض في النواميس، وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية.

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا إنما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق الله، وتفضيلنا على العالمين.. إن هذه المساحة تمتد هي الأخرى إلى أمداء واسعة: الموقف الذي نتخذه من العالم.. الأعمال والأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة.. هذه الحرية التي تقف بالإنسان والأمم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين: فإما أن تكون مواقفنا وأعمالنا

وأهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة، متوافقة معها، مما يترتب عليها إنجاز حضاري أغنى، وتوحد بشري أشمل، وسعادة أكثر عمقاً، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض.. وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم، وما يسعى الإسلام، وسيظل، من أجل تحويل البشرية كلها إليه: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال، عن نواميس الكون وسنن الحياة، مرتطمة بها، الأمر الذي يترتب عليه إنجاز حضاري متفكك، وتمزق بشري شامل، وشقاء عميق، ومصير سيئ في الدنيا والآخرة، يند عن طبيعة الدور الذي بعث الإنسان في العالم لأدائه، ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة.. وهذا ماسعت المذاهب الوضعية، وتسعى، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليه..

ومن ثم فإن الإسلام في تحليله لأدوار الأمم والشعوب والحضارات إنما يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها بها، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق، نافخاً فينا روح العمل والإبداع، مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد والشامل الذي أعلنه الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وليس مفهوم العبادة هنا مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة «الشعائرية» و«الاتصال الروحي» بالله.. إنه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض، ويمنحها معنى، ويسير بها إلى هدف واحد مرسوم.. إنه يمنح

التجربة الحضارية طابعها الخاص، ويعطيها الدافع والمبرر، وينفخ فيها روح الإبداع، والابتكار والتطور الدائم الفعال.. كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة الإنسان في العالم.. وبهذا تسقط ـ ابتداء ـ كل السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شاملاً، أولاً يسعى إلى هدف واضح، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في مناجاته مع خالقه... [للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموقف الإسلامي من «الحضارة» انظر الفصلين الثالث والرابع من كتاب «التفسير الإسلامي للتاريخ» (للمؤلف) واللذين اعتمدت بعض معطياتهما في هذا الفصل والذي يليه مع الإضافة وإعادة الصياغة التي تقتضيها طبيعة السياق].

الفصل الرابع

الملامح الأساسية للفعل الحضاري الإسلامي



الفصل الرابع
الملامح الأساسية
للفعل الحضاري الإسلامي

إن المقطع السابق يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط أشد الارتباط بالهيكل الحضاري الذي يطرحه الإسلام، لأنها تتعلق بطبيعة معطيات هذا الهيكل، تلك هي الملامح الأساسية التي تميز هذه المعطيات وتمنحها شخصيتها المتفردة بما أنها حصيلة لقاء ذي توجه إيماني بين العالم والإنسان والدين.. ولن يتسع المجال لاستعراض الملامح كافة، ونكتفي بأكثرها أهمية وثقلاً، متجاوزين التفاصيل والجزئيات.

[١]
روح العمل.. والإبداع..

نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ونستمع إلى الرسول المعلم ﷺ وهو ينادينا:

«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر».. فنعرف جيداً كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب!! ونعلم تماماً كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر!!

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم، على عين الله وتوجيهه، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمئة والخمسين موضعاً، وهي كلها تشير ـ سلباً وإيجاباً ـ إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة، وهو «موقف» ينسجم تماماً مع فكرتي «الاستخلاف» و«الاستعمار» الأرضي.

إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً إنما جاءت لابتلاء بني ادم، أيهم أحسن عملاً:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين: «الإيمان والعمل الصالح». . ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعال في قلب العالم:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥].

وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها:

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن «الإيمان» الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة «معامل حضاري» يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً. . كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان ليبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لامثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته، ويعبر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق «القيم» التي يؤمن بها و«الأهداف» التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعاً ـ في نظر الإسلام ـ عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله، وتجيء مصداقاً للآية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا «السباق» الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وأنهم ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة «الزمن» ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات، ما تلبث أن ترتقي ـ بمقاييس الكم والنوع ـ بمجرد أن يتجاوز «المسلم» مرحلة «الإيمان» إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا القرآن عنها في أماكن عديدة: «التقوى» و«الإحسان».

وهكذا تجيء «التجربة الإيمانية» لا لكي تمنح الحضارة وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار، فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة:

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق، تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾ [القصص: ٨٣].



[٢]
مجابهة التخريب والإفساد...

وفي مقابل هذا يندد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطئ من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت.

وهذه الحماية الحضارية لاتنصب على الجوانب المادية «المدنية» من الإنجاز البشري فقط، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية، وما يعد أساساً للإنجاز المادي نفسه تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية و«الثقافية» بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله تعالى إلى بني آدم.

إن الإصلاح والأعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية، مادية وأخلاقية وروحية، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس ـ بشكل أو بآخر ـ على الجوانب الأخرى، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا

يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٩ ـ ١١٠].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور ذات الطابع السلبي عن الإفساد الروحي والمادي، وعما يؤول إليه من دمار لحضارة الإنسان، ولرقيه وسعادته وتقدمه، ومن عرقلة لدوره في العالم، كمستخلف فيه، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن «تتحرك» لوقفه بأسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق، لئلا يتحول «الفساد» إلى فتنة عمياء لا ترحم أحداً ولا تبقي، وهي تدوم فوق رؤوس الجماعة كلها، ظالماً أو مظلوماً:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

إن الرؤية الإسلامية ترفض، في موقفها من الحضارة، أشد ما ترفض، صيغ التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، وترى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة، وأن تجزئتها وعزل بعض جوانبها، خلال العمل، عن بعضها الآخر، ليس خطأ فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا أردنا ـ مسبقاً ـ أن نصل إلى نتائج صحيحة.




[٣]
التوازن بين الثنائيات وتوحدها...

سنطيل الوقوف، بعض الشيء، عند هذه المسألة لأنها تكاد تمثل أكثر الملامح الأساسية أهمية في التصور الإسلامي للحضارة.

لقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضاري من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي جسدي في الوقت نفسه.. ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله، أو نقرأ سنة رسوله ﷺ، بإزاء تأكيدات عديدة، آيات وأحاديث، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات.. إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السموات والأرض، بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضاري على المستوى المادي «المدني». ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك، إنه ـ كما أكدنا ـ يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ويرفض التقطيع والتجزيء في تقييم الموقف «الحيوي» أو الدعوة إليه.. ولقد انعكس هذا «التوحد» بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية

التي قطعت ـ كما رأينا ـ القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين، وأنجزت وابتكرت وكشفت ونفذت الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً، ارتباطاً وثيقاً، بخلافة الإنسان على الأرض، ودوره الحضاري في العالم... وما كان لها إلا أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن، نتلمسه بوضوح من خلال آيات عديدة هذه بعض نماذجها:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣١].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٦ ـ ١٠].

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

إن القرآن ـ من خلال هذه الآيات، وغيرها كثير ـ يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة، على مستوى الكون والعالم، وأن يختار لنا موقعاً «تجريبياً» يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والإبداع، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري، فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض، وهو عبادة الله، والتوجه إليه أخذاً وعطاء.

إن هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية، تلك هي أن الله سبحانه مادام قد «عبر» عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة، والإنسان والطبيعة، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء، إن هذا «الموقف» مهما كانت درجته، غير مبرر في بداهات الإيمان، ولا في مقتضيات «الاستخلاف» ليس هذا فحسب، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات، ومن ثم فهو مرفوض في الرؤية الإسلامية ابتداء.

إن كتاب الله يوجه أنظارنا، في الآيات السالفة، إلى أشد الأمور مادية وثقلاً: النطفة الأولى؛ الأرض والسماء والجبال، وإلى دنيا النبات والحيوان.. ويدعونا لأن نسير بحثاً عن سنن هذه العوالم، وإدراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء.. إن القرآن يدعو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية، وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للإبداع الحضاري في مستواه الطبيعي، المادي، ولكن شرط أن تضبطه القيم والمعايير الدينية الآتية من عند الله.

إن كل آية أو مقطع قراني يتناول مسألة طبيعية، أو حيوية، أو مادية، ينتهي بأفعال التقوى والإيمان، وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله.. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح.. إن منطق «التوازن الحركي» الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البينات، والتي تكفل نمواً سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجريبتي الروح والمادة، ولا تنحرف باتجاه إحداهما، مهملة الأخرى، أو ضاغطة عليها، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد.. التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدها أفق، ولا يقف في طريقها تحديد صارم.. إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة وتتقدم ـ بعد هذا ـ صوب أعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه، أو في إمداء الكون لإدراك سره المعجز.. هذه الفاعلية التي مالها من حدود تقف عندها.. ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة، وإيصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى السماء، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود.

إن القرآن الكريم يبين لنا ـ أكثر من مرة ـ أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية الجسدية علاقة صميمة، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماماً كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران: ١٤].

إلا أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها الإسلام متميزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات، إنه يضع أهدافاً أعلى، وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من

مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع الحاجلت الجسدية، على ثقلها، لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها، ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحبة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية، وتنويعها، وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سمواً يعطي الحياة قيمتها الحقيقية، ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض، ويمنعها كذلك من التهويم السلبي في سموات الروح:

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٧].

إننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم إزاء الجانب المادي ـ الجسدي عموماً، من خلال حشد كبير من سوره ومقاطعه وآياته.. إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم، وتسخير السموات والأرض، ومسائل الرزق والكسب والسعي، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض، ولا داء مهمته كخليفة جاء لإعمار العالم، ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية ـ إلى جانب القوى الروحية ـ لصد العدوان، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة، وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة، وغيره كثير، تأكيد

واضح تماماً للاهمية التي يوليها القرآن الكريم للجانب المادي، إلا أنه يضع دائماً في صميم هذه العلاقات والممارسات، ولا نقول بمواجهتها، إذ إن الرؤية الإسلامية ترفض الثنائية والازدواج، يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكنه من أداء مهمة الاستخلاف التي أنيطت به.

وفي مقابل «حالة التوازن» هذه التي يؤكدها الإسلام، ويدعو المؤمنين إلى التشبث بها، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة.. تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية، مهملة الروح، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية، شذوذاً وانحرافاً، لأنها تزوير وتزييف للموقف البشري في العالم، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين الروح وقيم المادة على السواء؛ ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى اتجاهاً مادياً صرفاً، أو علمانياً يفصل بين شؤون الدين والدنيا.. ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً رهبانياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض.. لن تكون نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي، فيصيبه هو الآخر بالتمزق، والتشتت، والازدواج، وفقدان الهدف، وانتشار الإحساس المدمر بالعبثية، وباللاجدوى، وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق.. وهي مسائل تبلغ - بتصاعدها المستمر - درجة من الحدة تجعل الفعل الحضاري عاجزاً عن الإبداع والإنجاز وتقوده إلى التدهور والانهيار والسقوط.



[٤]
التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون...

والمبدأ السابق ينقلنا إلى ملمح آخر لا يقل أهمية.. إن الإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطاً جديداً.. خطاً يقوم على الوئام والانسجام، والتكامل والوفاق، والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة، بين الجماعة المؤمنة والعالم.. فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم، فإن العلاقة بينهما ليست ـ بالضرورة ـ علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء.. إنما علاقة انسجام وتقابل، وتواصل وتعاون، وتكامل وكشف وتنقيب.. إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير.. إنه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه، أو يستفزه، أو يرفع السلاح في وجهه.. إنما «يستخدمه» بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع.

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة، فإننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها، سنعثر على منطق الصراع الذي تنبني عليه معطياتها.. صراعاً يضعه «هيغل» في عالم الفكر ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة، ويضعه

«ماركس» في ميدان التبدلات المادية ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة.. أكثر من هذا، إنه يجرد الإنسان، في قلب هذا الصراع والتغيير المادي، من حريته وإرادته، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده حتى في أشد ممارساته بعداً عن المادية: الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى.

إن التصور الإسلامي، على العكس من هذا كله، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لاخلل فيها ولا اضطراب.. إننا ما دمنا خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التوازن التي لاتجنح ولا تنحرف ولا تميل.. التوازن الذي ينتفي فيه الصراع، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي فعال من أجل التوحد والتكامل والانسجام.. وإنه ما دامت قوى العالم ـ من جهة أخرى ـ قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال.. إنما هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية.

إن اكتشاف الفضاء في المنظور الإسلامي ليس «غزواً» كما يراه الغربيون، ولكنه فهم وتوغل ووفاق.. إن القمر ليس خصماً يغزى، ولكنه خادم مطيع ينادى فيلبي النداء!!

[٥]
الميزة التحريرية...

لقد كان الإسلام، منذ اللحظة الأولى، عملاً تحريرياً.. وعلى المستويات كافة.. وقد رأينا، ونحن نتحدث عن النقلة التصورية ـ الاعتقادية التي نفذها هذا الدين، كيف أنه حرر الإنسان من الضلالات والأوهام والطواغيت والأرباب.. وفي نقلته الأخرى.. النقلة المعرفية.. مارس تحريره من الخوف والجهل والأمية.. وكانت نقلته المنهجية باتجاه تحرير الإنسان المسلم من الخضوع للفوضى، والانحناء للمصادفة العمياء، وتبصيره بقوانين العمل والحركة التي يسير الكون والعالم والتاريخ بموجبها.

ونريد هنا أن نتوغل أكثر في هذه الميزة «التحريرية» التي تصبغ حضارة الإسلام وتتشابك مع نسيجها الفذ.. فنضع أيدينا على دعوة ملحة لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية والروحية، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ومنازعه!! وهذا التوجه يمثل امتداداً ولا ريب لرؤية الإسلام التوازنية الاصيلة التي مرت بنا خطوطها العريضة قبل قليل.

إن إحدى الآيات القرآنية تتحدث بصراحة عن «الزينة» آمرة بني آدم أن يمارسوها، وأين؟ عند كل مسجد، حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾..

تعقب ذلك دعوة صريحة ـ أيضاً ـ إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حد الإسراف:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم ما تلبث الآية التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إن المحرم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة، أياً كان مصدرها الجسد أم الروح.

وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح!! إننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك ـ وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح ـ نقرأ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات المنحرفة السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات التي أحلها الله، دون إفراط أو تفريط.. وإلا لم كان خلق الله سبحانه لها، وتفجير خيراتها وتنويعها في أنحاء الأرض؟

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

إن الآيتين الأخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنباً إلى جنب مع الشرك بالله، وتنعى على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق الكونية وبحق أنفسهم على السواء، قائلين: إن هذا قدر لا مفر لهم منه.. إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض، والشرك بالله هو أخطر تزوير، ومن ثم كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر.

بل إننا نجد في الآية التي تقول:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

إن كبت بعض جوانب الغريزة، أو الحد من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة «عقاب» وليس ـ كما قد يتصور بعضهم ـ قاعدة من قواعد الدين.. على العكس، إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً: طعاماً وشراباً وجنساً ومسكناً وملبساً، وأن

التحريم مسألة «استثنائية» محدودة المساحة، ضيقتها، حتى إن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفراً وافتراء على الله:

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦].

ويحذر المومنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وعجنه، وهو أدرى به:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية، أن يجيئوا ـ دائماً ـ لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها، ويقفوا بمواجهة التزوير.. وهنا في مجال التجربة الغريزية، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى؛ لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات:

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ان نداء يطرحه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة:

﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

يقودنا إلى بدهية أخرى، كثيراً ماغفلنا عنها، لشدة ظهورها ووضوحها، إن الله سبحانه قد «سخر» لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي من أجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة الله وحده، وإنه لمن التناقض المكشوف، المرفوض في القرآن قطعاً، أن يركب الإنسان ـ من قبل خالقه ـ

تركيباً معيناً، وأن تسخر الأرض ـ بإرادة الله ـ لتلبية متطلبات هذا التركيب، ثم تجيء الأديان ـ من عند الله أيضاً ـ لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة.

إن هذا التناقض إنما يجيء على أيدي طبقات «رجال الدين» التي يقوم دورها على التزييف، ووضع الحواجز، ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطراراً للجوء إليها، وطلب معونتها، قبل السماح لها بالذهاب إلى الله.. وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات الله ثمناً قليلاً.. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه، ومن ثم فلا داعي للحديث أساساً عن تزوير كهذا يقف بمواجهة إرادة الله في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم.

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجاته الأخرى.. سواء بسواء، ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى لكي تبدو للقارئ بمثابة معيار موضوعي، مستمد من القرآن الكريم مباشرة، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات الحيوية للإنسان.

[٦]
الإنجاز الحضاري ليس هدفاً نهائياً..

إن الإسلام وهو يحض المؤمنين على التسارع الحضاري: عملاً وإنجازاً وإبداعاً مسؤولاً، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار، لا يتجاوز، انطلاقاً من موقعه الوسطي الشامل، مسألة في مقابل هذا كله على غاية في الأهمية، لأنها تعد إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين الحضارتين: الدينية والوضعية، تلك هي التأكيد الدائم على أن الحياة الإنسان في الأرض، فرداً وجماعة، ليست أبدية دائمة، إنما هي عابرة موقوتة، وأن معطياته فيها ليست خالدة باقية، إنما هي معرضة ـ في أية لحظة ـ للدمار والزوال بناء على طبيعة «الحياة الدنيا» القائمة على التغير والتنوع، والصعود والهبوط، والميلاد والموت.. وإن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام، والتي كتب للإنسان فيها الخلود المطلق، ومن ثم فإن كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألا يكون هدفاً بحد ذاته، كما هو الحال في جل التجارب الوضعية، إنما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده، وإيجاد المناخ المناسب لممارسة «الاستخلاف»..

وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية اكبر، ويكتسب في الوقت ذاته «أخلاقية» لا نجدها في سائر الحضارات، تصده

عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتمه هذه الغاية الشريفة، البعيدة، التي لاتقف عند حد.

إن القرآن الكريم، من أجل أن نظل دوماً في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة النسبية، المتأرجحة، يحدثنا في أكثر من موضع عن هذه المسألة.. إلا أنه يجب ألا يخطر ببالنا لحظة أنه يدعونا للزهد أو الفرار، لأن هذا يمثل تناقضاً أساسياً مع مجمل معطياته، ومع تأكيده في مئات المواضع على ضرورة العمل والإبداع.. إنما هو تقرير للحقيقة النهائية، وتثبيت للموازين العادلة، وعرض مقارن لعالمي الفناء والبقاء، ورؤية المؤمنين تصدهم عن الإفساد والطغيان:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦].

ويتضح هذا المعنى الأخلاقي الإيجابي للمسألة من خلال العديد من الآيات التي تندد بالغرور البشري الذي ينبثق عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا، ويتمخض عن الظلم والإفساد والطغيان:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن نسبية التجارب البشرية، وعدم دوامها، لاتبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودهما، إنما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك.. الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض، وتقدم وتؤخر، وتنشئ وتعيد، بإرادة الله، ووفق نواميسه في الكون:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١].

الخاتمة

نحو (تكنولوجيا) إسلامية

لقد منحنا الإسلام مفتاحين للخلاص، كلما حزب بنا الأمر، وضيقت حركة التاريخ الخناق علينا، وتجاوزتنا القيادات الأخرى، ووجدنا أنفسنا مدفوعين إلى مناطق العتمة والظلال.

أول هذين المفتاحين: «التغيير الذاتي» وثانيهما: «الإعداد الذاتي» ودونهما لن تبدأ حركة صوب التقدم إلى المواقع الأمامية.. أبداً.. ولن يكون التجاوز والانطلاق.

وإننا لنجد في كلا المفتاحين مساحة واسعة تحتلها مسألة إعادة تشكيل العقل المسلم كشرط أساسي للتحقق بالتغيير الذاتي والإعداد الذاتي على السواء..

فأما «التغيير الذاتي» فقد طرح القرآن الكريم حده الإيجابي بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وطرح حده السلبي بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وهو تغيير يمتد إلى المساحات كافة، وإلى سائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية، والجسدية، وكل العلاقات والبنى الداخلية مع

الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ.

إن تأكيد الإسلام على قانون (التغيير) يعني أنه يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير، في التشبث به أو استعادته إذا ما فات من بين يديها.. ومن ثم فإنه ما إن تتهيأ هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحذ النفسي، والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والجسدي ـ كذلك ـ حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات من أي نوع كانت، وبأي درجة جاءت، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان؛ وهكذا يعود الإنسان ـ في المنظور الإسلامي ـ لينتصر على التحديات، وليستعيد قدرته الأبدية على التجدد والتطور والإبداع.

وليس ثمة ما يقف في طريق امتلاك ناصية التغيير الذاتي، كالرؤية التجزيئية أو الموقف النصفي!!

لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً، وتصورها مجرد تجديد للتوثب الروحي، أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية، أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام.

وسنقع في الخطأ نفسه لو قلنا: إن الحل يكمن «فقط» في إعادة تشكيل العقل المسلم.

إن التغيير الذاتي عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة: عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية.. وأي تجزيء في الرؤية، أو الموقف، يقتل المحاولة في المهد... ولكننا بتأكيدنا على التشكل، أو التغيير العقلي، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار، دوماً، سلماً للأولويات، فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية.. ولما كان التركيز في عملية

التغيير قد انصب في معظمه على الجوانب الأخرى، بعيداً عن العقل، ولما كانت عملية إعادة التشكل العقلي ضرورة قصوى وشرط حاسم لاستكمال عملية التغيير، كان وقوفنا عندها طويلاً في هذا البحث.. بل كان هذا البحث بمثابة عرض وتحليل لهذه المعضلة بالذات.

مرة أخرى.. فإن التغيير الذاتي بمنظوره الشامل، وبوضعيته المركبة، وجهده المتعدد.. لهو أحد مفتاحين لابد منهما للتحقق بالقوة والفاعلية والخلاص.

فأما المفتاح الثاني فهو «الإعداد الذاتي».

وإذا كان «التغيير» ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى، لكي ينسحب ـ من ثم ـ على الجماعة فيمكن لها في الأرض.

فإن «الإعداد» ينصب على الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى لكي يحمي ـ من ثم ـ الذات المؤمنة من الحصار والتضييق في العالم.. والقرآن الكريم يقولها صراحة، وبالتعبير نفسه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولن يتحقق الإعداد المطلوب إن لم تستجش طاقات الإنسان المسلم كافة، ويعاد تشكيل عقله، كما أراد له الإسلام أن يكون، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة، والوصول إلى شواطئ الأمن واليقين، والتحقق بسياج القوة التي ترهب الأعداء، وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض.

والعلم الحديث ليس مارداً كافراً لكي نتبرأ منه وندعو لحربه، ولكنه أداة حيادية يمكن أن نوظفها لخدمة ديننا، وتعزيز عقيدتنا.

والعلم الحديث ليس ابن الحضارة الغربية وحدها، لكي نتردد في احتضانه وتنشئته.. ولكنه تمخض أبدي لتراكم في الخبرة البشرية، وحضارات شتى أسهمت بها معظم شعوب الأرض الحية.. وكان لحضارة الإسلام نصيب وافر في وضع دعائمه، وتصحيح مناهجه، وطرح الكثير من معطياته.

وقد تكلمنا عن موقف الإسلام من العلم الحديث في غير هذا المكان [كتاب «مدخل إلى موقف القرآن من العلم»]، ولن يتسع المجال هنا لطرح ما قلناه هناك، والنتيجة التي يطمئن إليها الإنسان، إزاء المسألة، وبإيجاز شديد، أن معطيات القرآن الكريم قد امتدت لكي تشمل أطراف العلم جميعاً، فتعالجها وتنير لها الطريق، وتبرمج لمناهجها، وتقدم طرفاً من كشوفها ونتائجها: الفلسفة «أو الأهداف»، والمنهج، والحقائق، والتطبيقات.

إننا نجد العديد من المبادئ الأساسية للحياة الإسلامية التي تحدثنا عن بعض جوانبها، من مثل الاستخلاف والتسخير والتوازن والارتباط المحتوم بين معجزة الخلق ووجود الخالق.. لا يمكن تنفيذها وتعزيزها، وتعميق معطياتها في العالم دون اعتماد العلم أداة لتحقيق هذه الأهداف... كأسلوب أو برنامج عمل لخدمة التصور الإسلامي؛ الذي يقوم على هذه الأسس.

ونجد القرآن الكريم يطرح، لأول مرة، كما سبق وأن مر بنا في سياق هذا البحث، منهجاً حسياً تجريبياً للنشاط المعرفي، هو نفسه الذي يعتمده اليوم العلم الحديث.

هذا إلى أن القرآن الكريم طرح حشداً من الحقائق والكشوف العلمية في ميادين شتى، وخاصة الفلك والطبيعة والجغرافية والطب والنفس. . إلى آخره، جاءت معطيات العلم الحديث لكي تؤكدها وتزيدها إيضاحاً. . مصداقاً لقوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

ولقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما التطبيقات «التقنية» التي تتمخض في نهاية الأمر عن منهج العلم وحقائقه النظرية الصرفة. . فإن للقرآن الكريم كلمته فيها هي الأخرى. . وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى. . إذ ماعلاقة كتاب الله «بالتكنولوجيا» وهي نتاج يتميز بالجدة والحداثة لمعطيات العلم في شوط متأخر من مسيرته الطويلة؟!

ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا جيداً أن القرآن الكريم قالها صراحة، وفي أكثر من موضع. . وأنها تواترت فيه حتى بلغت مرتبة اليقين. . ولكن أين الأذان التي تسمع، والعيون التي تبصر، والعقول التي تتدبر وتفكر وترى؟

وإذ كان هذا الجانب من العلم الحديث يرتبط أشد الارتباط بما نحن بصدده من التحقق الإسلامي بالقوة، ومن الدعوة إلى قيام عصر «التكنولوجيا الإسلامية»، وتشكيل المجتمع الإسلامي التقني. . فسوف نقف عنده بعض الشيء في ختام رحلتنا هذه مع «إعادة تشكيل العقل المسلم»، رغم أننا كنا قد وقفنا عنده بمزيد من التفاصيل في أكثر من كتاب.

[«التفسير الإسلامي للتاريخ» و«آفاق قرانية» و «مدخل إلى موقف القرآن من العلم»]. . .

إننا نطالع في القرآن الكريم هذه الآيات:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١٣].

وفي مقطع آخر نجده في سورة [ص: ١٧ ـ ٢٠].. نقرأ، تأكيداً واستكمالاً للموقف:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

ثم تعود الآيات تتحدث عن سليمان كرة أخرى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥ ـ ٣٩].

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين، داود وسليمان عليهما السلام، وقد سخرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لايحدها جدار زماني أو حاجز مكاني، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت

إمرة الإنسان، المؤمن المسؤول: الجياد، الطير، الحديد، الريح، القطر «النفط».. في عدد مشار إليه من مساحات العمل «التقني» التطبيقي: صناعة وعمراناً وبناء وفنوناً.. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود، اللذين قد تبين لنا في قرننا العشرين هذا، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق.. ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود، ولكنه يعلمه كيف يلينه، فدون هذا لن تكون ثمة فائدة «صناعية» لهذا الخام الخطير.

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن، بل بالنبي، الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذخورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتفنن ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعداً، على طريق الخلافة المسؤولة، المؤمنة، الراشدة، التي لاينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان.

وفي سورة [الحديد: ٢٥] نقرأ هذه الآية:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟ هل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والإبداع والبناء والتطبيق، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم، من هذه الآية

التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد: «البأس الشديد» متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري، و«المنافع» التقنية التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في مجالات نشاطه وبنائه «السلمي». وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً؟

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن «ترهب» أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل، وتستطيع ـ أيضاً ـ أن تخطو خطوات تقنية واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى؛ التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها؟!

إن كل موقف قرآني يشكل ـ ولا ريب ـ وحدة عضوية لاتنفصم عراها، يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعضها بعض كل الآيات التي تغذي هذا «الموقف» وتشكل مادته الحية: في الاقتصاد، في الاجتماع، في السياسة، في التشريع، في النفس، في العلاقات الدولية، في العقائد، في الآداب، في المعاملات.. إلى آخره. في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبكة التي تصنعها وتصورها، وتمنحها صيغتها النهائية مجموعة من الآيات والمقاطع المنبثة في ثنايا القرآن.

والآن ونحن نتكلم عن الحديد نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات التي مرت بنا قبل قليل من سورة «سبأ» تلك التي تذكر نعمة الله على داود عليه السلام بتسبيل الحديد!!. وهي بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع، ونتذكر أيضاً «ذا القرنين» وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٦-٩٧].

وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

لكي ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدوا الحديد، هذا الخام الخطير المذكور في عدد من المواضع، والذي سميت إحدى السور باسمه، مادة أساسية لإعداد «القوة» وإرهاب الأعداء في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على إرهاب أعدائه، هذه القدرة التي ترتبط دوماً بمدى التقدم التقني «التكنولوجي» ارتباطاً عضوياً، وتسير معه في المنحنيات نفسها التي يجتازها في أغلب الأحيان.

إننا يجب أن نلتفت ـ هنا ـ إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين، في آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته «البأس» ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

إنها العقيدة التي تعرف كيف تشد الإنسان إلى أعماق الأرض، وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها.. وأن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر.. وأنه ـ بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال

هذا، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة، ويختار ـ بدلاً من ذلك ـ مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسوف يهزم لا محال مادام قد أشاح عن هذا النداء القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه دون الاعتماد الواعي، المسؤول، الخبير، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هناك «نصر» ولا «تقدم» ولا «حماية» للموازين والقيم العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرعون.

إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي «تكنولوجي» وبدء عصر «تكنولوجيا إسلامية» إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاقه، واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها ـ في الوقت نفسه ـ من التفكك والعدوان.

إن «التكنولوجيا الإسلامية»، التي ترتبط ـ بطبيعة الحال ـ بخليفتها الإيمانية، تعد «ضرورة» ملحة ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها، ولكن على مستوى البشرية عامة.. لأنها ستعرف كيف تتحرك، وتنضبط على هدي القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله، فتكون حقاً في خدمة «الإنسان» الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر، والعرقية، والأنانية، والعصيان.

إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع.. أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه، مادامت قيم هذا الدين تؤكد بإلحاح على فكرة

الزمن، وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف «يسارع» وكيف «يسبق»!!!

وسواء شئنا أم أبينا، فنحن ـ أولاً وأخيراً ـ مسؤولون عن هزائمنا العقيدية، وانحطاطنا السياسي، وتخلفنا الحضاري.. ومرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم والجماعات الأخرى مشجباً لتعليق هذه الهزائم وتبريرها.. ولن ينقذنا إلا فعلنا الخاص، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلا تحملنا الكامل لمسؤوليتنا.

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع على أن أية أمة، مؤمنة كانت أم غير مؤمنة، إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها، أمام الله ثم أمام التاريخ، ولن تحمل أبداً تبعة أمة أخرى إلا بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعالم، فكما أنه على المستوى الفردي يؤكد الإسلام مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

ومن قبل تساءل المسلمون الذين انهزموا في معركة «أحد» عن سبب هزيمتهم غير المتوقعة تلك.. فأجابتهم كلمات الله:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

والمفاتيح «عندنا» فإن لم نصل اليوم الذي نبني فيه «مختبراتنا» ونشغلها بعقولنا.. ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا.. إن لم نعد تشكيل عقولنا لكي «تعمل» كما أراد لها الإسلام أن تعمل.. فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم، ولن يكون بمقدور ألف سنة أخرى من الاتكالية وصور التعبد والذكر القائمة أن تصنع المعجزة!!!

ذلك هو التحدي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء.

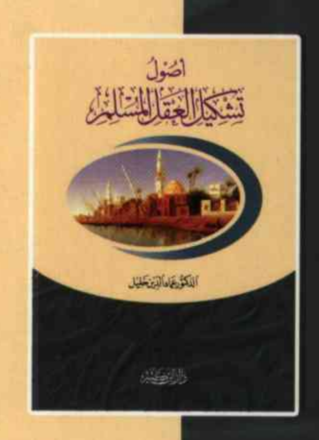
وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ...

هذا هو الجواب.






فهرس الموضوعات



يحاول هذا الكتاب أن يتابع الخطوط العريضة لأصول التشكيل العقلي الذي نفذه الإسلام؛ فمنح اتباعه تلك القدرات الفذة على الفعل والعطاء والإبداع.

ويعالج الكتاب ـ في فصله الأوّل ـ النقلات، أو التحوّلات الأساسية التي نفذها الإسلام، أو منحها بعبارة أدق، عقول أتباعه في المجالات التصورية، والاعتقادية، والمعرفية، والمنهجية.

ويسعى في فصله الثاني لتقديم عرض موجز لأبعاد التحقق التاريخي؛ الذي نفذه العقل المسلم على عين الله وتوجيه رسوله الكريم ﷺ، أما الفصلان الأخيران فيؤشران على ملامح التوجه الحضاري لهذا العقل، والحضارة التي صنعها، والتي يُطلب منه أن يصنعها على اختلاف الأمكنة وتغاير الأزمان.



دمشق : ص.ب. 311
بيروت : ص.ب. 113/6318
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com